الطبعة الثانية



سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (٣)

تهذيب الداء والدواء

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

إعداد
د. سلطان بن ناصر الناصر د. تركي بن عبدالله الميمان

إشراف
عطاءات العلم



دار عطاءات العلم


تهذيب
الداء والدواء

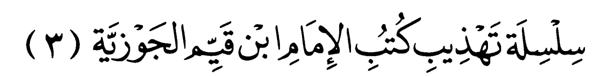
ⓒ مؤسسة عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر/ الناصر، سلطان بن ناصر
تهذيب الداء والدواء/ سلطان بن ناصر الناصر، تركي بن عبد الله
الميمان. -الرياض ١٤٤٢هـ
ص؛ ٠٠/ ..سم
ردمك: ٠-١٨-٨٣١٤-٦٠٣-٩٧٨
١- الوعظ والإرشاد ٢- الأدعية والأذكار أ- الميمان تركي بن عبدالله (مؤلف مشارك) ب- العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٩٢٦١

أحد مشاريع
عطاءات العلم
هاتف: ٩٦٦١١٤٩١٦٥٣٣+
فاكس: ٩٦٦١١٤٩١٦٣٧٨+
info@ataat.com.sa

الطبعة الثانية
مراجعة ومنقّحة
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 011-2702719
0551523173 @daralhadarah
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net





تهذيب الداء والدواء

مختصر

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١-٧٥١هـ)

إعداد
د. سلطان بن ناصر الناصر
د. تركي بن عبدالله الميمان

إشراف
عطاءات العلم

دار عطاءات العلم


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن **«عطاءات العلم»** بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية، ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولًا لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

لقد نهضت **«عطاءات العلم»** منذ تأسيسها بعدة مشاريع نوعية وفق منهجية احترافية، صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته **«عطاءات العلم»** عنايتها واهتمامها؛ فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية، وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًّا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها، ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ

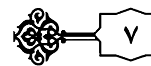
منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ، ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف بلدان العالم.

وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب، وتهذيبها، واختصارها بمنهج علمي محكم، يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء، الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل، والرد علىٰ المخالفين، ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«**عطاءات العلم**» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر (عضو المجلس الإشرافي لـ «**عطاءات العلم**»)، وتولت «**عطاءات العلم**» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله ﷻ أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر، ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع. والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

عَطَاءَاتُ العِلْمِ



مقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بـ«ابن قيم الجوزية»، المولود سنة ٦٩١، والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلًا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها ورودُها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل؛ ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها، دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، ومن أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل،

وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في اختصار التصانيف وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا؛ فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرى العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يأتي:

١- إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها، ولا زيادة عليها.

٢- المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣- الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤- الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥- إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول، ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦- إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

٧- وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل، ولم تثبت في التهذيب؛ نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق؛ لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

٨- الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» جزاها الله خيرًا بخدمة التهذيب بما يأتي:

١- تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢- شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣- وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤- وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥- وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦- وضع فهرس مفصل للكتاب.

٧- مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨- التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «**عطاءات العلم**» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم، وبارك فيها، وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سُلطان بن ناصِر النّاصِر   د. تُركي بن عبد الله الميمان


عطاءات العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ما تقول السادة العلماء أئمةُ الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجلٍ ابتلي ببليَّةٍ، وعلم أنها إن استمرَّت به أفسدت عليه دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق؛ فما تزداد إلا توقُّدًا وشدةً؛ فما الحيلةُ في دفعها؟ وما الطريقُ إلىٰ كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلًىٰ «**والله في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**»[1]، أفتونا مأجورين.

فأجاب الشيخ الإمام العالم شيخ الإسلام مفتي الفِرَق شمسُ الدين أبو عبدِ الله محمَّدُ بنُ أبي بكر بنِ أيوبَ، إمامُ المدرسة الجوزية بدمشق المحروسة رضي الله عنه:

الحمد لله. ثبت في «صحيح البخاري»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أنزل اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاءً**».

وفي «صحيح مسلم»[3] من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل داءٍ دواءٌ، فإذا أُصِيب دواءُ الداءِ بَرَأَ بإذن الله**».

وفي «مسند الإمام أحمد»[4] من حديث أسامةَ بن شَرِيك عن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم يُنْزِلْ داءً إلا أنزل له شفاءً، علِمَه مَن علِمَه، وجَهِله مَن جَهِله**».

---

(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) برقم (٥٦٧٨).

(٣) برقم (٢٢٠٤)

(٤) (٤/ ٢٧٨) برقم (١٨٤٥٦).

وهذا يعمُّ أدواءَ القلب والروح والبدن، وأدويتَها.

وقد جعل النبي ﷺ الجهلَ داءً، وجعل دواءَه سؤالَ العلماء[1].

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] **وقال**: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] **و«من» هاهنا لبيان الجنس لا للتبعيض؛ فإن القرآن كلَّه شفاءٌ، كما قال في الآية الأخرى.**

فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والرَّيب؛ فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاءً قطُّ أعمَّ ولا أنفعَ ولا أعظمَ ولا أنجعَ في إزالة الداء من القرآن، وهو أسهلُ دواءٍ وأيسرُه، ولو أحسن العبدُ التداويَ بالفاتحة لرأىٰ لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء.

ومكثتُ بمكة مدّةً تعتريني أدواء ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأرىٰ لها تأثيرًا عجيبًا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، وكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

ولكن هاهنا أمر ينبغي التفطُّنُ له، وهو أن الأذكارَ والآياتِ والأدعيةَ التي يُستشفىٰ بها، ويُرقىٰ بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبولَ المحلِّ، وقوةَ همةِ الفاعلِ وتأثيرِه؛ فمتىٰ تخلَّف الشفاءُ كان لضعفِ تأثيرِ الفاعل، أو لعدم قَبول المنفعل، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية؛ فإنَّ عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثرَه؛ فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبولٍ تامٍّ كان انتفاعُ البدن به بحَسَب

---

(١) كما أخرجه أبو داود (٣٣٦). وانظر: بيان الوهم والإيهام لابن القطان (٢/ ٢٣٦).

ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقىٰ والتعاويذ بقبولٍ تامٍّ، وكان للراقي نفسٌ فعَّالةٌ وهمةٌ مؤثرةٌ، أثَّرَ في إزالة الداء.

وكذلك الدعاءُ، فإنه من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلَّفُ عنه أثرُه:

إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاءً لا يحبه الله لما فيه من العدوان.

وإما لضعف القلب، وعدم إقباله علىٰ الله، وجمعيته عليه وقتَ الدعاء؛ فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا؛ فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا.

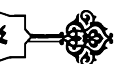
وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم، ورَين الذنوب علىٰ القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتِها عليها.

كما في «صحيح الحاكم»[١] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«ادعو اللهَ وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يقبل دعاءً مِن قلبٍ غافلٍ لاهٍ»**.

فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكنَّ غفلةَ القلب عن الله تُبطِل قوَّتَه، وكذلك أكلُ الحرام يُبطل قوَّته ويُضْعِفها.

---

(١) (١/ ٦٧٠ - ٦٧١) برقم (١٨١٧)، وأخرجه أيضًا الترمذي (٣٤٧٩) وضعَّفه، وابنُ عدي في «الكامل» (٤/ ٦٢)، وابنُ حبان في المجروحين (١/ ٣٦٨).



فصل

ص ١١
الدعاء من أنفع الأدوية

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدوُّ البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزولَه ويرفعه، أو يُخَفِّفه إذا نزل.

وهو سلاح المؤمن، كما روىٰ الحاكم في «صحيحه»[1] من حديث علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاءُ سلاحُ المؤمن، وعمادُ الدين، ونورُ السماوات والأرض**».

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوىٰ من البلاء، فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعفَ من البلاء، فيقوىٰ عليه البلاءُ، فيصاب به العبد، ولكن قد يُخَفِّفُه وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه.

وقد روىٰ الحاكم في «صحيحه»[2] من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا يغني حَذَرٌ مِن قَدَرٍ، والدعاءُ ينفع مما نزل ومما لم ينزِلْ. وإن البلاءَ لَينزلُ فيلقاه الدعاءُ، فيَعْتَلِجان إلىٰ يوم القيامة**».

وفيه أيضًا[3] من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل؛ فعليكم عبادَ الله بالدعاء**».

---

(١) (١/ ٦٦٩) برقم (١٨١٢)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٧٩).

(٢) (١/ ٦٦٩) برقم (١٨١٣)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بقوله: «زكريا مُجمَعٌ علىٰ ضعفه».

(٣) (١/ ٦٧٠) برقم (١٨١٥)، وأخرجه أيضًا الترمذي (٣٥٤٨) وضعَّفه.

وفيه أيضًا[١] من حديث ثوبان: «**لا يردُّ القدرَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العُمر إلا البِرُّ، وإنَّ الرجلَ ليُحْرَمُ الرزقَ بالذنب يُصِيبه**».

فصل

ص ١٣
من أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء

ومن أنفع الأدوية: الإلحاحُ في الدعاء.

وقد روىٰ ابن ماجَهْ في «سننه»[٢] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسألِ اللهَ يغضَبْ عليه**».

وفي «صحيح الحاكم»[٣] من حديث أنس عن النبي ﷺ: «**لا تَعجِزُوا في الدعاء؛ فإنه لا يَهلِكُ مع الدعاء أحدٌ**».

وذكر الأوزاعي، عن الزُّهري، عن عُروةَ، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب المُلِحِّين في الدعاء**»[٤].

وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمد[٥] عن قتادةَ قال: قال مُوَرِّقٌ: ما وجدت للمؤمن مثلًا إلا رجلًا في البحر علىٰ خشبة، فهو يدعو: يا ربِّ! يا ربِّ! لعلَّ اللهَ ﷻ أن يُنجيه.

---

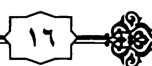
(١) (١/ ٦٧٠) برقم (١٨١٤)، وأخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢)، وصححه ابن حبان (٨٧٢).

(٢) برقم (٣٨٢٧)، وأخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وصححه الحاكم (١/ ٦٦٨) برقم (١٨٠٧).

(٣) (١/ ٦٧١) برقم (١٨١٨)، وصححه ابن حبان (٨٧١)، وضعَّفه العُقيلي في الضعفاء (٣/ ١٨٨).

(٤) أخرجه الطبراني في الدعاء (٢٥)، وضعفه ابن عدي في الكامل (٧/ ١٦٤)، والصحيح أنه من قول الأوزاعي. انظر: الضعفاء للعقيلي (٤/ ٤٥٢).

(٥) برقم (١٧٦٥)، ورجاله ثقات.



فصل

ص ١٥
استبطاء الإجابة من موانع قبول الدعاء

ومن الآفات التي تمنع ترتُّبَ أثرِ الدعاء عليه: أن يستعجِلَ العبدُ ويستبطئَ الإجابةَ؛ فيستَحْسِرَ ويدَعَ الدعاء، وهو بمنزلة مَن بذَرَ بَذْرًا، أو غرس غِراسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلمَّا استبطأ كمالَه وإدراكَه تركه وأهمله!

وفي «صحيح البخاري»[1] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجَلْ؛ يقول: دعوتُ فلم يُستجَبْ لي**».

وفي «صحيح مسلم»[2] عنه: «**لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رَحِمٍ، ما لم يستعجِلْ**» قيل: يا رسولَ الله، وما الاستعجال؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ وقَد دعوتُ، فلم أرَ يَستجِيبُ لي؛ فيَستَحْسِرُ عند ذلك ويدَعُ الدعاء**».

وفي «مسند أحمد»[3] من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**» قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ ربِّي فلم يَستجِبْ لي**».

---

(١) برقم (٦٣٤٠).
(٢) برقم (٢٧٣٥).

(٣) (٣/ ١٩٣) برقم (١٣٠٠٨، ١٣١٩٨)، وضعفه ابن عدي في الكامل (٦/ ٢١٤).

ص ١٦
من آداب
الدعاء

فصل

وإذا جمع الدعاءُ حضورَ القلب وجمعيتَه بكلِّيته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تُقضى الصلاة، وآخرُ ساعةٍ بعد العصر من ذلك اليوم؛ وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الربِّ وذلًّا له وتضرُّعًا ورِقَّةً؛ واستقبل الداعي القبلةَ، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنَّى بالصلاة على محمَّدٍ عبدِه ورسولِه ﷺ، ثم قدَّم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفارَ، ثم دخل على الله وألحَّ عليه في المسألة وتملَّقه، ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يدي دعائه صدقةً - فإنَّ هذا الدعاءَ لا يكاد يُرَدُّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعيةَ التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنَّةُ الإجابة، أو أنها مُتضمِّنةٌ للاسم الأعظم.

فمنها ما في «السنن» و«صحيح ابن حبان»[1] من حديث عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول: «اللهم إني أسألك بأنّي أشهد أنَّك أنت اللهُ، لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد» فقال: «لقد سأل اللهَ بالاسم الذي إذا سُئِل به أعطىٰ، وإذا دُعي به أجاب».

وفي لفظ: «لقد سألتَ الله باسمه الأعظم»[2].

---

(١) أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٨٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٤).

وفي «السنن» و«صحيح ابن حبان»(١) أيضًا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا، ورجلٌ يصلي، ثم دعا فقال: **«اللهم إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمدَ، لا إله إلا أنت، المنانُ بديعُ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم»** فقال النبي ﷺ: **«لقد دعا اللهَ باسمه العظيم الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى»**.

وأخرج الحديثين الإمام أحمد في «مسنده»(٢).

وفي «جامع الترمذي»(٣) من حديث أسماءَ بنتِ يزيدَ أن النبي ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ **[البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عمران:** ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ **[آل عمران: ١ - ٢]**».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي «مسند أحمد» و«صحيح الحاكم»(٤) من حديث أبي هريرةَ وأنسِ بن مالك وربيعةَ بن عامرٍ عن النبي ﷺ أنه قال: **«أَلِظُّوا بـ(يا ذا الجلال والإكرام)»** يعني: تعلَّقوا بها، والزَمُوها، وداوِمُوا عليها.

---

(١) أبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، والترمذي (٣٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٨٩٣).

(٢) (٣/ ١٢٠، ١٥٨، ٢٦٥) برقم (١٢٢٠٥، ١٢٦١١، ١٣٧٩٨).

(٣) برقم (٣٤٧٦)، وأخرجه أبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٧) برقم (١٧٥٩٦)، والحاكم (١/ ٦٧٦) من حديث ربيعة بن عامر.
وأخرجه الحاكم (١/ ٦٧٦) من حديث أبي هريرة. وفيه رِشْدِين بن سعد، وهو ضعيف الحديث. وأخرجه الترمذي (٣٥٢٥) من حديث أنس، وأعلَّه أبو حاتم والترمذي بالإرسال. انظر: علل ابن أبي حاتم (٢/ ١٧٠ - ١٩٢).

وفي «جامع الترمذي»(١) من حديث أبي هريرة: أنَّ النبي ﷺ كان إذا أهمَّه الأمرُ رفع رأسَه إلىٰ السماء فقال: «**سبحان الله العظيم**»، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «**يا حيُّ يا قيوم**».

وفيه أيضًا(٢) من حديث أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كَرَبه أمرٌ قال: «**يا حيُّ يا قيومُ، برحمتك أستغيث**».

وفي «صحيح الحاكم»(٣) من حديث أبي أُمامة عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**اسمُ الله الأعظمُ في ثلاثِ سُوَرٍ من القرآن: البقرة وآل عمران وطه**» قال القاسم: فالتمستُها، فإذا هي آية ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

وفي «جامع الترمذي» و«صحيح الحاكم»(٤) من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «**دعوة ذي النون إذ دعا، وهو في بطن الحوت:** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] **إنَّه لم يَدْعُ بها مسلمٌ في شيء قطُّ إلا استجابَ الله له**». قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي «صحيح الحاكم»(٥) أيضًا من حديث سعدٍ عن النبي ﷺ: «**ألا أخبِرُكم بشيءٍ إذا نزل برجلٍ منكم كربٌ أو بلاءٌ من بلايا الدنيا فدعا به يُفرِّجُ الله عنه؟ دعاءُ ذي النون**».

---

(١) برقم (٣٤٣٦)، وقال: «هذا حديث غريب».

(٢) برقم (٣٥٢٤)، وقال: «وهذا حديث غريب».

(٣) (١/ ٦٨٤)، وأخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦)، من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة، وفي روايته عنه كلام. انظر: تهذيب الكمال (٢٣/ ٣٨٦).

(٤) الترمذي (٣٥٠٥)، والحاكم (١/ ٦٨٤، ٦٨٥)، برقم (١٨٦٢، ١٨٦٣)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٥) (١/ ٦٨٥) برقم (١٨٦٤).

وفي «صحيحه» أيضًا[(١)] عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**هل أدلُّكم علىٰ اسم الله الأعظم؟ دعاءُ يونس**» فقال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصةً؟ فقال: «**ألا تسمع قوله:** ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]؛ «**فأيُّما مسلم دعا بها في مرضه أربعينَ مرةً، فمات في مرضه ذلك، أُعطِيَ أجرَ شهيدٍ، وإنْ بَرَأ بَرَأ مغفورًا له**».

وفي «الصحيحين»[(٢)] من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيمُ الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيمِ، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرضِ ربُّ العرشِ الكريمِ**».

وفي «مسند الإمام أحمد»[(٣)] من حديث علي بن أبي طالب ؓ قال: علَّمني رسولُ الله ﷺ إذا نزل بي كربٌ أن أقول: «**لا إله إلا الله الحليمُ الكريم، سبحانَ الله وتبارك اللهُ ربُّ العرش العظيم، والحمد لله ربِّ العالمين**».

وفي «مسنده»[(٤)] أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أصاب أحدًا قطُّ همٌّ ولا حُزنٌ، فقال: اللهم إنِّي عبدُك، ابنُ عبدِك، ابنُ أَمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك اللهمَّ بكلِّ اسمٍ هو لك،**

---

(١) (١/ ٦٨٥) برقم (١٨٦٥)، فيه عمرو بن بكر السَّكْسَكي، قال ابن حجر: «متروك». انظر: التقريب (٤٩٩٣).

(٢) البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٣) (١/ ٩١، ٩٤) برقم (٧٠١، ٧٢٦)، وصححه ابن حبان (٨٦٥)، والحاكم (١/ ٦٨٨ - ٦٨٩) برقم (١٨٧٣، ١٨٧٤).

(٤) (١/ ٣٩١) برقم (٣٧١٢)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٩٧٩)، والحاكم (١/ ٦٩٠)، (١٨٧٧).

سمَّيتَ به نفسَك، أو علَّمتَه أحدًا مِن خلقِك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حُزْني، وذَهابَ همِّي؛ إلا أذهبَ اللهُ ﷻ همَّه وحزنَه، وأبدله مكانَه فرحًا» فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلَّمُها؟ قال: «بلىٰ؛ ينبغي لمن سَمِعها أن يتعلَّمَها».

فصل

ص ٢٥ استجابة الدعاء لا يتوقف على لفظ الداعي فقط

وكثيرًا ما تجد أدعيةً دعا بها قومٌ فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورةُ صاحبِه، وإقبالُه علىٰ الله، أو حسنةٌ تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابةَ دعوته شكرًا لحسنته، أو صادف وقتَ إجابةٍ ونحو ذلك، فأجيبت دعوته؛ فيظن الظانُّ أن السرَّ في لفظ ذلك الدعاء؛ فيأخذه مجرَّدًا عن تلك الأمور التي قارنَتْه من ذلك الداعي، وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعًا في الوقت الذي ينبغي علىٰ الوجه الذي ينبغي، فانتفع به؛ فظنَّ غيرُه أن استعمال هذا الدواء بمجرَّده كافٍ في حصول المطلوب، كان غالطًا.

وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس.

ومِن هذا أنَّه قد يتفق دعاؤه باضطرارٍ عند قبر فيجاب؛ فيظنُّ الجاهل أنَّ السرَّ للقبر، ولم يعلم أنَّ السرَّ للاضطرار وصدقِ اللَّجَأ إلىٰ الله، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضلَ وأحبَّ إلىٰ الله.

فصل

ص ٢٦
الأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح

والأدعية والتعوُّذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدِّه فقط، فمتىٰ كان السلاحُ سلاحًا تامًّا لا آفةَ به، والساعدُ ساعدٌ قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتىٰ تخلَّف واحد من هذه الثلاثةِ تخلَّف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غيرَ صالحٍ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانعٌ من الإجابة؛ لم يحصل الأثر.

فصل

هل ينفع الدعاء مع القدر

وهاهنا سؤال مشهور: وهو أنَّ المدعوَّ به إن كان قد قُدِّر لم يكن بدٌّ من وقوعه، دعا به العبدُ أو لم يدعُ، وإن لم يكن قد قدِّر لم يقع، سواءٌ سأله العبدُ أو لم يسأله.

والصواب أنَّ هاهنا قسمًا ثالثًا غيرَ ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدور قُدِّر بأسبابٍ، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجردًا عن سببه، ولكن قدر بسببه، فمتىٰ أتىٰ العبدُ بالسبب وقع المقدور، ومتىٰ لم يأت بالسبب انتفىٰ المقدور، وهذا كما قُدر الشبعُ والرِّيُّ بالأكل والشرب، وقدر الولدُ بالوطءِ، وقدر حصولُ الزرعِ بالبذر، وقدر خروجُ نفسِ الحيوان بذبحه، وكذلك قُدر دخولُ الجنة بالأعمال، ودخولُ النار بالأعمال.

وهذا القسم هو الحق، وهو الذي حُرِمَه السائل ولم يوفَّق له.

وحينئذ فالدعاء من أقوىٰ الأسباب؛ فإذا قُدر وقوعُ المدعوِّ به بالدعاء لم يصح

أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيءٌ من الأسباب أنفعَ من الدعاء، ولا أبلغَ في حصول المطلوب.

ولما كان الصحابة ﷺ أعلمَ الأمةِ بالله ورسوله، وأفقههم في دينه؛ كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يستنصر به علىٰ عدوِّه، وكان أعظم جُنْدَيه، وكان يقول للصحابة: لستم تُنصَرون بكثرةٍ، وإنما تُنصَرون من السماء.

وكان يقول: إنِّي لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء؛ فإذا أُلهِمتُ الدعاءَ فإنَّ الإجابة معه[1].

وأخذ الشاعر هذا، فنظمه، فقال:

لو لم تُـرِدْ نيـلَ ما أرجـو وأطلُبُه مِن جودِ كفِّك ما عوَّدتَني الطَّلَبا

فمَن أُلهِمَ الدعاءَ فقد أريد به الإجابةُ؛ فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي «سنن ابن ماجه»[2] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسألِ الله يغضَبْ عليه**».

وهذا يدل علىٰ أن رضاه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الربُّ ﷻ فكلُّ خيرٍ في رضاه، كما أنَّ كلَّ بلاءٍ ومصيبةٍ في غضبه.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام في الفتاوىٰ (٨/ ١٩٣)، والاقتضاء (٢/ ٢٢٩).

(٢) تقدم تخريجه.

وقد ذكر الإمامُ أحمد في كتاب «الزهد»[١] أثرًا: «أنا الله، لا إله إلا أنا، إذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي منتهىٰ، وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد».

وقد دلَّ العقلُ والنقلُ والفِطَرُ وتجاربُ الأمم -علىٰ اختلاف أجناسها ومِلَلها ونِحَلها- علىٰ أنَّ التقرب إلىٰ ربِّ العالمين، وطلبَ مرضاته، والبرَّ والإحسانَ إلىٰ خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خيرٍ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شرٍّ، فما استُجلِبتْ نِعمُ الله واستُدفِعتْ نِقَمُه بمثل طاعته، والتقرب إليه، والإحسان إلىٰ خلقه.

وقد رتَّب الله سبحانه حصولَ الخيرات في الدنيا والآخرة وحصولَ الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه علىٰ الأعمال؛ ترتيبَ الجزاءِ علىٰ الشرط، والمعلولَ علىٰ العلة، والمسبَّبَ علىٰ السبب.

وهذا في القرآن يزيد علىٰ ألف موضع.

وبالجملة، فالقرآن من أوله إلىٰ آخره صريح في ترتُّب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأَمْرية علىٰ الأسباب، بَل ترتُّبِ أحكام الدنيا والآخرة ومصالحِهما ومفاسدِهما علىٰ الأسباب والأعمال.

ومَن فقِهَ هذه المسألةَ، وتأمَّلَها حقَّ التأمل؛ انتفع بها غاية النفع، ولم يتَّكِلْ علىٰ القدر جهلًا منه وعجزًا وتفريطًا وإضاعةً؛ فيكونَ توكلُه عجزًا، وعجزُه توكلًا.

بل الفقيهُ كلُّ الفقيه الذي يردُّ القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسانَ يعيشُ إلا بذلك؛ فإنَّ الجوع والعطش والبرد وأنواع

---

(١) برقم (٢٨٩)، وسنده صحيح إلىٰ وهب بن منبه.

المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلقُ كلُّهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر.

وهكذا، من وفَّقه اللهُ وألهمه رُشدَه، يدفع قدَر العقوبة الأخروية بقدَر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة؛ فهذا وِزان القدر المَخُوف في الدنيا وما يُضادُّه سواء؛ فربُّ الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يُناقض بعضُها بعضًا، ولا يُبطِل بعضُها بعضًا.

فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قَدْرها، ورعاها حقَّ رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقىٰ عليه أمران بهما تتمُّ سعادتُه وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، ويكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جرَّبه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أنفع ما في ذلك تدبُّرُ القرآن؛ فإنه كفيل بذلك علىٰ أكمل الوجوه، وفيه أسباب الشرِّ والخير جميعًا مفصَّلةً مبيَّنةً، ثم السنَّةُ، فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايتَه اكتفىٰ بهما عن غيرهما، وهما يُرِيانِك الخير والشرَّ وأسبابَهما، حتّىٰ كأنَّك تُعايِن ذلك عِيانًا.

وبعد ذلك إذا تأملتَ أخبارَ الأمم وأيامَ الله في أهلِ طاعته وأهلِ معصيته، طابَقَ ذلك ما علمتَه من القرآن والسنة، ورأيتَ تفاصيلَ ما أخبر اللهُ به، ووعَدَ به، وعلمتَ من آياته في الآفاق ما يدلُّك على أن القرآن حقٌّ، وأن الرسول حق، وأن الله يُنجِز وعدَه لا محالة؛ فالتاريخ تفصيلٌ لجزئياتِ ما عرَّفَنا اللهُ ورسولُه به من الأسباب الكلية للخير والشر.

فصل

ص ٣٦
الحذر من الاتكال على عفو الله ومغفرته

والأمر الثاني: أن يحذر مغالطةَ نفسِه له علىٰ هذه الأسباب.

وهذا من أهم الأمور؛ فإنَّ العبد يعرف أنَّ المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بدَّ، ولكن تُغالطه نفسُه بالاتِّكال علىٰ عفو الله ومغفرته تارةً، وبالتسويف بالتوبة تارةً، وبالاستغفار باللسان تارةً، وبفعل المندوبات تارةً، وبالعلم تارةً، وبالاحتجاج بالقدر تارةً، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء والاقتداء بالأكابر تارةً.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: «أستغفر الله» زال أثرُ الذنب وراح هذا بهذا!

وقال لي رجل من المنتسبين إلىٰ الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول: «سبحان الله وبحمده» مائة مرة، وقد غُفِر ذلك أجمَعُه، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال في يوم: (سبحان الله وبحمده) مائةَ مرةٍ، حُطَّتْ عنه خطاياه ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحر**»[1].

وقال لي آخرُ من أهل مكة: نحن أحدُنا إذا فعل ما فعل اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا[2] وقد مُحِيَ عنه ذلك.

وقال لي آخر: قد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أذنبَ عبدٌ ذنبًا فقال: أَيْ ربِّ، أصبتُ ذنبًا فاغفِرْه لي؛ فغَفَر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أَيْ، ربِّ أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي؛ فغفره له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال:**

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).

(٢) أي: سبعة أشواط. النهاية (٢/ ٣٣٦).

أيْ، ربِّ أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي؛ فقال الله ﷻ: علِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنبَ ويأخذ به، قد غفرتُ لِعبدي؛ فليصنَعْ ما شاء»[1] قال: وأنا لا أشكُّ أنَّ لي ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به.

وهذا الضرب من الناس قد تعلَّق بنصوص الرَّجاء، واتَّكل عليها، وتعلق بها بكلتا يديه، وإذا عُوتِب علىٰ الخطايا والانهماك فيها سرَدَ لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائبُ وعجائبُ، كقول بعضهم:

وكَثِّرْ ما استطعتَ من الخطايا ... إذا كان القدومُ علىٰ كريمِ[2]

وقول الآخر: التنزُّه من الذنوب جهل بسعة عفو الله!

وقول الآخر: تركُ الذنوب جراءة علىٰ مغفرة الله، واستصغارٌ لها!

ومنهم من يغترُّ بأن الله ﷻ غنيٌّ عن عذابه، وأنَّ عذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا ينقص من ملكه شيئًا؛ فيقول: أنا مضطرٌّ إلىٰ رحمته، وهو أغنىٰ الأغنياء، ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًّا إلىٰ شَربة ماءٍ، عند مَن في داره شَطٌّ يجري، لَما منعه منها؛ فالله أكرم وأوسع، فالمغفرة لا تَنْقُصُه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٧٥٥٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

(٢) البيت لأبي نواس في وفيات الأعيان (٢/ ٩٧)، وفيه: «تكثَّر» وهو في ديوانه أيضًا (٧٣٠) مع اختلاف.

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول: كَرَمُه!

وقد يقول بعضهم: إنَّه لقَّنَ المغترَّ حجتَه.

وهذا جهل قبيح؛ وإنما غرَّه بربِّه الغَرورُ، وهو الشيطان، ونفسُه الأمَّارةُ بالسوء، وجهلُه، وهواه.

وأتىٰ سبحانه بلفظ «الكريم» وهو السيِّد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقِّه، فوضع هذا المغترُّ الغُرورَ في غير موضعه، واغترَّ بمن لا ينبغي الاغترار به.

وكاتِّكال بعضهم علىٰ صوم يوم عاشوراء، أو يومِ عرفةَ، حتَّىٰ يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفِّر ذنوب العام كلِّها، ويبقىٰ صومُ يومِ عرفة زيادةً في الأجر(١).

ولم يدرِ هذا المغتر أنَّ صومَ رمضانَ والصلواتِ الخمسَ أعظمُ وأجلُّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفِّرُ ما بينها إذا اجتُنِبَتْ الكبائر(٢).

فرمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة لا يَقْوى على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها؛ فيقوى مجموعُ الأمرين على تكفير الصغائر.

فكيف يكفِّر صومُ يومِ تطَوُّعٍ كلَّ كبيرةٍ عملها العبدُ، وهو مصرٌّ عليها، غيرُ تائب منها! هذا محال.

---

(١) يشير إلىٰ حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ الذي أخرجه مسلم (١١٦٢).

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه مسلم (٢٣٣).

وكاتِّكال بعضهم علىٰ قوله ﷺ حاكيًا عن ربه: «**أنا عند حُسن ظنِّ عبدي بي، فليَظُنَّ بي ما شاء**»(١) يعني: ما كان في ظنه، فإنّي فاعله به.

ولا ريب أنَّ حسن الظن إنَّما يكون مع «الإحسان»؛ فإنَّ المحسن حَسَنُ الظنِّ بربه أنَّه يجازيه علىٰ إحسانه، ولا يُخلف وعدَه، ويقبل توبتَه، وأما المسيءُ المصرُّ علىٰ الكبائر والظلم والمخالفات؛ فإنَّ وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد؛ فإنَّ العبد الآبقَ المسيءَ الخارجَ عن طاعة سيده لا يحسن الظن به.

ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظنِّ أبدًا؛ فإنَّ المسيءَ مستوحشٌ بقدر إساءته، وأحسنُ الناس ظنًّا بربِّه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: إنَّ المؤمن أحسَنَ الظنَّ بربِّه، فأحسَنَ العملَ، وإنَّ الفاجر أساء الظنَّ بربِّه، فأساء العمل(٢).

وكيف يكون مُحسنَ الظن بربه من هو شارد عنه، حالٌّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض لِلَعنته، قد هان حقُّه وأمرُه عليه فأضاعه، وهان نهيُه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه!

فتأمَّلْ هذا الموضع، وتأمَّلْ شدة الحاجة إليه!

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقُّنُه بأنَّه ملاقٍ اللهَ، وأنَّ الله يسمع كلامَه، ويرىٰ مكانَه، ويعلم سرَّه وعلانيتَه، ولا يخفىٰ عليه خافيةٌ مِن أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كلِّ ما عمل؛ وهو مقيمٌ علىٰ مساخطه، مضيِّعٌ لأوامره،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١)، (١٦٠١٦)، وصححه ابن حبان (٦٣٣، ٦٤١)، والحاكم (٤/ ٢٦٨)، (٧٦٠٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٦٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٤).

معطِّلٌ لحقوقه، وهو مع هذا محسنٌ الظنَّ به! وهل هذا إلا من خَدْع النفوس وغرور الأماني!

وقد قال **أبو أُمامة بن سهل بن حُنَيف**: دخلتُ أنا وعروة بن الزبير علىٰ عائشة ﵂ فقالت: لو رأيتُما رسولَ الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرِّقَها. قالت: فشغلني وجعُ النبي ﷺ حتىٰ عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: «**ما فعلتِ؟ أكنتِ فرَّقتِ الستَّةَ الدنانيرَ؟**» فقلت: لا، واللهِ لقد كان شغلني وجعُك. قالت: فدعا بها، فوضعها في كفِّه فقال: «**ما ظنُّ نبيِّ اللهِ لو لقي الله، وهذه عنده!**»[(١)] وفي لفظ: «**ما ظنُّ محمَّد بربِّه لو لقي الله وهذه عنده!**».

فيا لله! ما ظنُّ أصحابِ الكبائر والظَّلَمةِ بالله إذا لقُوه ومظالمُ العباد عندهم! فإن كان ينفعهم قولُهم: «حَسَّنَّا ظنونَنا بك» لم يعذِّبْ ظالم ولا فاسق، فليصنع العبدُ ما شاء، وليرتكب كلَّ ما نهاه الله عنه، وليحسِّنْ ظنَّه بالله، فإنَّ النار لا تَمَسُّه! فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعبد!

وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦ - ٨٧] أي: فما ظنُّكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيرَه!

ومن تأمل هذا الموضع حقَّ التأمل علِمَ أنَّ حسنَ الظن بالله هو حسنُ العمل نفسه؛ فإنَّ العبد إنما يحمله علىٰ حسن العمل حسنُ ظنِّه بربه أن يُجازيَه علىٰ أعماله، ويُثيبَه عليها، ويتقبَّلَها منه؛ فالذي حمله علىٰ العمل حسنُ الظن، وكلَّما حَسُن ظنُّه حَسُن عملُه، وإلا فحسنُ الظن مع اتباع الهوىٰ عجز.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٤)، (٢٤٧٣٣)، وصححه ابن حبان (٣٢١٣).

كما في الترمذي والمسند من حديث شدَّاد بن أوس عن النبي ﷺ **أنَّه قال: «الكيِّسُ من دان نفسَه، وعمِلَ لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبعَ نفسَه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله»**(١).

وبالجملة؛ فحسن الظن إنَّما يكون مع انعقاد أسباب النجاح، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتَّىٰ إحسانُ الظن.

فإن قيل: بل يتأتىٰ ذلك، ويكون مستندُ حسن الظن سعةَ مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأنَّ رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبةُ ولا يضرُّه العفو.

قيل: الأمرُ هكذا، واللهُ فوق ذلك، وأجلُّ وأكرم وأجوَدُ وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محلِّه اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوف بالحكمة، والعزَّة، والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة.

فلو كان معوَّلُ حُسنِ الظنِّ علىٰ مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليُّه وعدوُّه، فما ينفع المجرمَ أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرَّض لِلَعنته، وأوضعَ في محارمه، وانتهك حرماته! بل حسن الظن ينفع من تاب، وندم، وأقلع، وبدَّل السيئةَ بالحسنة، واستقبل بقيةَ عمره بالخير والطاعة، ثم حسَّن الظنَّ؛ فهذا حسن الظن، والأول غرور! والله المستعان.

ولا تستطِلْ هذا الفصل، فإنَّ الحاجة إليه شديدة لكل أحد، ففَرْقٌ بين حسن الظن بالله وبين الغِرَّة به.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]؛ فجعل هؤلاء أهل الرَّجاء، لا البطَّالين والفاسقين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحديث حسنه الترمذي.

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠]؛ فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها.

فالعالم يضع الرَّجاء مواضعَه، والجاهلُ المغتر يضعه في غير مواضعه.

فصل

ص ٥١ من الجهل الاعتماد على العفو مع تضييع الأمر والنهي

وكثير من الجهال اعتمدوا علىٰ رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيَّعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين.

ومن اعتمد علىٰ العفو مع الإصرار فهو كالمعاند.

وقال معروف: رجاؤك لرحمةِ من لا تطيعه من الخِذلان والحمق[١].

وقال بعض العلماء: مَن قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثةِ دراهمَ، لا تأمَنْ أن تكون عقوبته في الآخرة علىٰ نحو هذا.

وقيل للحسن: نراك طويلَ البكاء! فقال: أخاف أن يَطرحَني في النار ولا يبالي[٢].

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوامٍ يخوِّفونا حتىٰ تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتىٰ تدرك أمْنًا خيرٌ لك من أن تصحب قومًا يؤمِّنونك حتىٰ تلحقك المخاوف[٣].

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي (٨٩). ومعروفٌ هو الكَرخي.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١١٧). والحسن هو البصري.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ الزهد (١٤٥٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٩ - ١٥٠).

وقد ثبت في «الصحيحين»(١) من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يُجاءُ بالرجل يوم القيامة، فيُلقَىٰ في النار، فتندلِقُ أقتابُ بطنه(٢)، فيدور في النار كما يدور الحمارُ برَحاه، فيُطيف به أهلُ النار، فيقولون: يا فلان، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»**.

وذكر الإمام أحمد(٣) من حديث أبي رافع قال: مرَّ رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: **«أفٍّ لك! أفٍّ لك!»** فظننتُ أنه يريدني، فقال: **«لا، ولكن هذا قبرُ فلانٍ بعثتُه ساعيًا علىٰ آل فلان، فغَلَّ نَمِرةً، فدُرِّعَ الآن مثلَها من نار»(٤)**.

وفي «مسنده» أيضًا(٥) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي علىٰ قومٍ تُقرَضُ شِفاهُهم بمقاريضَ من نارٍ، فقلتُ: مَن هؤلاء؟ قالوا: خطباءُ من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبرِّ، ويَنْسَون أنفسَهم؛ أفلا يعقلون!»**.

وفيه أيضًا(٦) من حديثه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لمَّا عُرِجَ بي مررتُ بقوم**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) أي: تخرج أمعاؤه من جوفه. النهاية (٢/ ١٣٠).

(٣) في مسنده (٦/ ٣٩٢)، (٢٧١٩٢)، وأخرجه النسائي (٨٦٢،٨٦٣)، وصححه ابن خزيمة (٢٧٣٧).

(٤) أي: بعثه النبي ﷺ عاملًا علىٰ جَمْع الصدقات، فغَلَّ -أي: سَرَق- منها نَمِرةً، وهي بردةٌ مخطَّطة من صوف. انظر: اللسان (نمر).

(٥) (٣/ ١٢٠) برقم (١٢٢١١)، وهو حديث صحيح.

(٦) المسند (٣/ ٢٢٤) برقم (١٣٣٤٠)، وأخرجه أبو داود (٤٨٧٨، ٤٨٧٩)، وصححه الضياء في المختارة (٢٢٨٥، ٢٢٨٦).

لهم أظفارٌ من نُحاس، يَخْمِشون وجوهَهم وصدورهم، فقلتُ: مَن هؤلاء يا جبريلُ؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس، ويقعون في أعراضهم».

وفيه أيضًا[١] عنه قال: كان النبي ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «**يا مقلِّبَ القلوب ثبِّتْ قلبي علىٰ دينك**» فقلنا: يا رسول الله، آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم؛ إنَّ القلوب بين إصبَعين من أصابع الله؛ يقلِّبُها كيف يشاء**».

وفيه أيضًا[٢] عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «**ما لي لم أَرَ ميكائيل ضاحكًا قطُّ؟ قال: ما ضَحِك منذ خُلِقت النار**».

وفي «صحيح مسلم»[٣] عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتَىٰ بأنعَمِ أهل الدنيا من أهل النار، فيُصبَغ في النار صَبغةً، ثم يقال له: يا بنَ آدم، هل رأيتَ خيرًا قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا واللهِ يا ربِّ، ويؤتىٰ بأشدِّ الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغ في الجنة صَبغةً، فيقال له: يا بنَ آدم، هل رأيت بؤسًا قطُّ؟ هل مرَّ بك شدةٌ قطُّ؟ فيقول: لا، والله يا ربِّ ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شدةً قط**».

وفي «المسند»[٤] أيضًا من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي أرىٰ ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون؛ أَطَّتِ السماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ! ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وعليه ملَكٌ ساجدٌ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكَيتم**

---

(١) المسند (٣/ ١١٢) برقم (١٢١٠٧)، وأخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه.

(٢) المسند (٣/ ٢٢٤) برقم (١٣٣٤٣)، وسنده لا يصح. انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٣٨٥).

(٣) برقم (٢٨٠٧).

(٤) (٥/ ١٧٣) برقم (٢١٥١٦)، وأخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم (٢/ ٥٥٤) برقم (٣٨٨٣).

كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرون[١] **إلى الله ﷻ»** قال أبو ذر: والله لوددتُ أنِّي شجرة تُعضَد!

وفي مسند الإمام أحمد[٢] من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تدنو الشمسُ يوم القيامة على قدرِ ميلٍ، ويُزاد في حرِّها كذا وكذا، تغلي منها الرؤوسُ كما تغلي القدور، يَعْرَقُون فيها على قدر خطاياهم، منهم مَن يبلغُ إلى كَعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقَيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يُلجِمُه العرَق»**.

وفيه عن ابن عباس[٣] عن النبي ﷺ قال: **«كيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْن قد التقم القَرْنَ وحَنى جبهتَه يسمَع متى يُؤمر فينفُخ!»** فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: **«قولوا: حسبنا اللهُ ونِعم الوكيل، على الله توكلنا»**.

وفي «المسند» أيضًا[٤] من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم ومحقَّراتِ الذنوب؛ فإنهنَّ يجتمعن على الرجل حتى يُهلِكْنَه»** وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلًا كمثل قوم نزلوا أرضَ فَلاةٍ، فحضر صنيعُ القوم[٥] فجعل الرجلُ ينطلق فيجيء بالعُود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأجَّجُوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها.

وفي «صحيح مسلم»[٦] عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ أولَ الناس يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجلٌ استُشْهِد، فأُتي به، فعرَّفه نعمَه،**

---

(١) أي: لخرجتم إلى الطرقات ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدعاء. النهاية (١/ ٢٣٢، ٣/ ٢٩).

(٢) (٥/ ٢٥٤) برقم (٢٢١٨٦).

(٣) (١/ ٣٢٦) برقم (٣٠٠٨).

(٤) (١/ ٤٠٢ - ٤٥٣) برقم (٣٨١٨).

(٥) يعني: طعامهم. النهاية (٣/ ٥٦).

(٦) برقم (١٩٠٥).

فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ قُتِلتُ، قال: كذبتَ، ولكن قاتلتَ ليقال: هو جريء؛ فقد قيل، ثم أمر به، فسُحِبَ علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار، ورجلٌ تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتيَ به، فعرَّفه نعمَه، فعرَفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن؛ فقال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمت لِيُقال: هو عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ؛ فقد قيل، ثم أمر به، فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار، ورجلٌ وسَّع الله عليه رزقَه، وأعطاه من أصناف المال كلِّه، فأُتِي به، فعرَّفه نعمَه، فعرَفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ فقال: ما تركتُ من سبيل تحبُّ أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك؛ قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد؛ فقد قيل، ثم أمر به، فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار».

وفي لفظ: «فهؤلاء أولُ خلقِ الله تُسَعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامة»[1].

وسمعتُ شيخ الإسلام يقول: كما أنَّ خير الناس الأنبياء؛ فشرُّ الناس من تشبَّه بهم من الكذَّابين وادَّعى أنه منهم، وليس منهم؛ فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والمتصدِّقون المخلصون؛ فشرُّ الناس من تشبَّه بهم، يُوهِم أنه منهم وليس منهم.

والأحاديث في هذا الباب أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا؛ فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامىٰ عنها، ويرسلَ نفسه في المعاصي، ويتعلَّقَ بحبل الرَّجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء ابن عقيل: احذَرْه ولا تغترَّ؛ فإنَّه قطع اليد في ثلاثة دراهم[2]،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٨٢٤)، وابن خزيمة (٢٤٨٢)، وابن حبان (٤٠٨) بنحوه.

(٢) يشير إلىٰ حديث ابن عمر ﵄ الذي أخرجه البخاري (٦٧٩٥ - ٦٧٩٨)، ومسلم (١٦٨٦).

وجلد الحدَّ في مثل رأس الإبرة من الخمر[١]، وقد دخلت امرأة النارَ في هرَّةٍ[٢]، واشتعلت الشملةُ نارًا علىٰ من غلَّها وقد قُتِل شهيدًا[٣].

وربما اتَّكل بعضُ المغترِّين علىٰ ما يرىٰ من نِعَم الله عليه في الدنيا، وأنه لا يُغيِّر به، ويظنُّ أنَّ ذلك من محبة الله له، وأنَّه يعطيه في الآخرة أفضلَ من ذلك، وهذا من الغرور.

قال الإمام أحمد[٤]: حدثنا يحيىٰ بن غيلان، حدثنا رِشدين بن سعد، عن حَرملة ابن عمرانَ التُّجِيبي، عن عُقْبة بن مسلم، **عن عُقْبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله ﷻ يُعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يحِبُّ، فإنما هو استدراج» ثم تلا قوله ﷻ**: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ **[الأنعام: ٤٤]**.

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع نعمَه عليك، وأنت مقيم على معاصيه، فاحذَرْه؛ فإنما هو استدراج يستدرجك به[٥].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[الزخرف: ٣٣ - ٣٥]**.

---

(١) كما في حديث جابر بن عبد الله: «**ما أسكر كثيره، فقليله حرام**». أخرجه أبو داود (٣٦٨١).

(٢) يشير إلىٰ حديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في المسند (٤/ ١٤٥)، (١٧٣١١)، والزهد (٦٢).

(٥) من قول الزاهد الواعظ سلمة بن دينارٍ، أبي حازم الأعرج، من صغار التابعين. أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٣١).

وقد ردَّ سبحانه علىٰ من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧] أي: ليس كلُّ من نعَّمتُه ووسَّعتُ عليه رزقَه أكون قد أكرمتُه، ولا كلُّ من ابتَليتُه وضيَّقتُ عليه رزقه أكون قد أهنتُه، بل أبتلي هذا بالنعمة، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي «جامع الترمذي»[1] عنه ﷺ: **«إنَّ الله يعطي الدنيا مَن يُحِبُّ ومن لا يُحِبُّ، ولا يعطي الإيمان إلا من يُحِب»**.

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرَجٍ بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مغرور بسَتْر الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يعلم[2].

فصل

ص ٧٩
أعظم الخلق غرورًا من اغتر بالدنيا

وأعظم الخلق غرورًا من اغترَّ بالدنيا وعاجلها؛ فآثَرها علىٰ الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتَّىٰ يقولَ بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أنفع من النسيئة! ويقول بعضهم: ذَرَّة منقودة، ولا دُرَّة موعودة!

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم العُجْم أعقل من هؤلاء؛ فإنَّ البهيمة إذا خافت مضرةَ شيءٍ لم تُقْدِم عليه ولو ضُرِبَتْ، وهؤلاء يُقدِم أحدُهم علىٰ عطَبه،

(١) ليس في المطبوع منه، والحديث أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) برقم (٣٦٧٢) من حديث ابن مسعود، وصححه الحاكم (٢/ ٤٨٥) برقم (٣٦٧١)، ورجح وقفه العقيليُّ في الضعفاء (٢/ ٢١٣)، والدارقطني في علله (٥/ ٢٦٩ - ٢٧١).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٦٠٦) عن الحسن البصري بمعناه.

وهو بين مصدِّق ومكذِّب؛ فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرةً؛ لأنه أقدم علىٰ علمٍ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبْعِدْ له!

وقول هذا القائل: «النقد خير من النسيئة» فجوابه: أنَّه إذا تساوىٰ النقد والنسيئة فالنقد خير، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهي خير، فكيف والدنيا كلُّها من أولها إلىٰ آخرها كنَفَسٍ واحد من أنفاس الآخرة!

كما في مسند الإمام أحمد والترمذي[1] من حديث المستورِد بن شدَّاد قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخِلُ أحدُكم إصبعَه في اليمِّ، فلينظُرْ بم ترجع!»**.

فإيثار هذا النقد علىٰ هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل.

وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلىٰ الآخرة؛ فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلىٰ الآخرة! فأيُّما أولىٰ بالعاقل؛ إيثارُ العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمانُ الخير الدائم في الآخرة، أم تركُ شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له[2]، ولا خطرَ له[3]، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده؟

فإن قلت: كيف يجتمع التصديقُ الجازمُ الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلَّف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبدُ أنه مطلوب غدًا إلىٰ بين يدي بعض الملوك ليعاقبَه أشدَّ عقوبةٍ، أو يكرمَه أتمَّ كرامةٍ، ويبيتُ ساهيًا غافلًا، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعدُّ له، ولا يأخذ له أهبته؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٩) برقم (١٨٠٠٨)، والترمذي (٢٣٢٢).

(٢) أي: لا يُقدَّر ثمنه من عزته ونفاسته وعظم قدره.

(٣) أي: لا عوض عنه ولا نظير له.

قيل: هذا -لَعمرُ الله- سؤال صحيح وارد علىٰ أكثر هذا الخلق.

واجتماعُ هذين الأمرين من أعجب الأشياء.

وهذا التخلُّف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين. ومن ظنَّ أن العلم لا يتفاوت فقوله مِن أفسد الأقوال وأبطلِها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربَّه أن يُريه إحياءَ الموتىٰ عِيانًا، بعد علمه بقدرة الربِّ علىٰ ذلك؛ ليزداد طمأنينةً، ويصير المعلوم غيبًا شهادةً.

وقد روىٰ أحمد في «مسنده»[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمُعاينة**».

فإذا اجتمع إلىٰ ضعف العلم عدمُ استحضاره، وغَيبتُه عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرِها؛ لاشتغاله بما يضادُّه، وانضمَّ إلىٰ ذلك تقاضي الطبع، وغَلَباتُ الهوىٰ، واستيلاءُ الشهوة، وتسويلُ النفس، وغرورُ الشيطان، واستبطاءُ الوعد، وطولُ الأمل، ورقدةُ الغفلة، وحبُّ العاجلة، ورُخَصُ التأويل، وإلْفُ العوائد؛ فهناك لا يُمسك الإيمانَ إلا الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا.

ولهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان حتىٰ ينتهي إلىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال ذرة في القلب.

وجِماعُ هذه الأسباب يرجع إلىٰ ضعف البصيرة والصبر؛ ولهذا مَدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة الدين؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

---

(١) (١/ ٢١٥، ٢٧١) برقم (١٨٤٢، ٢٤٤٧)، وصححه ابن حبان (٦٢١٣).



فصل

ص ٨٦
الفرق بين حسن الظن والغرور

فقد تبيَّن الفرقُ بين حسن الظن والغرور، وأنَّ حسن الظن إن حَمَل علىٰ العمل، وحثَّ عليه، وساق إليه؛ فهو صحيح، وإن دعا إلىٰ البطالة والانهماك في المعاصي، فهو غرور.

وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه حاديًا له علىٰ الطاعة، زاجرًا له عن المعصية؛ فهو رجاءٌ صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطًا؛ فهو المغرور.

ولو أن رجلًا له أرض يؤمِّلُ أن يعود عليه من مُغَلِّها ما ينفعه، فأهملها ولم يَبذُرْها، ولم يَحْرِثها، وأحسن ظنَّه بأنه يأتي من مُغَلِّها ما يأتي مَن حَرَث وبَذَر وسقَىٰ، وتعاهَد الأرضَ؛ لعدَّه الناس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسَّن ظنَّه وقوَّىٰ رجاءَه بأن يجيئَه ولدٌ من غير جماع، أو يصير أعلمَ أهل زمانه من غير طلبٍ للعلم وحرصٍ تامٍّ عليه، وأمثال ذلك.

فكذلك من حسَّن ظنه وقوَّىٰ رجاءه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم، من غير طاعةٍ ولا تقرُّبٍ إلىٰ الله تعالىٰ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق.

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فتأمَّل كيف جعل رجاءَهم إتيانَهم بهذه الطاعات!

وقال المغترون: إنَّ المفرِّطين المضيِّعين لحقوق الله، المعطِّلين لأوامره، الباغين علىٰ عباده، المتجرِّئين علىٰ محارمه، أولئك يرجون رحمة الله!

وسرُّ المسألة: أنَّ الرَّجاء وحسنَ الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمةُ الله في شرعه، وقدَرِه، وثوابه وكرامته؛ فيأتي العبد بها، ثم يحسن ظنَّه بربه، ويرجوه ألا يكِلَه إليها، وأن يجعلَها موصلةً إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعارضها، ويبطل أثرها.

من رجا شيئًا خاف من فواته وسعى في تحصيله

فصل

ومما ينبغي أن يُعلَم: أنَّ من رجا شيئًا استلزم رجاؤه أمورًا:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيُه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاءٌ لا يقارِنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء، والأماني شيء آخر، فكلُّ راجٍ خائفٌ، والسائرُ على الطريق إذا خاف أسرَعَ السيرَ مخافةَ الفوات.

وفي «جامع الترمذي»[1] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن خاف أدلَجَ، ومن أدلج بلغَ المنزلَ، ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنَّة**».

وهو سبحانه كما جعل الرَّجاء لأهل الأعمال الصالحة؛ فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال؛ فعُلِمَ أنَّ الرَّجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل.

---

(١) برقم (٢٤٥٠)، والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم (٤/ ٣٤٣) برقم (٧٨٥١).

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وقد روىٰ الترمذي في «جامعه»[١] عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهُم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون، ويخافون ألا يُتقبَّل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**».

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا[٢].

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمَّل أحوالَ الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن!

فهذا الصدِّيق يقول: «وددتُ أنّي شعرة في جنب عبد مؤمن». ذكره أحمد عنه[٣].

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد![٤]

وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكُوا، فإنْ لم تبكُوا فتَباكَوا[٥].

وكان إذا قام إلىٰ الصلاة كأنه عُودٌ من خشية الله عز وجل[٦].

---

(١) برقم (٣١٧٥)، وأخرجه ابن ماجه (٤١٩)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٢٧) برقم (٣٤٨٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ٣٣)، وأعلّه الدارقطني في علله (١١/ ١٩٣).

(٣) في الزهد (٥٥٩)، وفي سنده ضعف.

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦١).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٥٥٨).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٢٦٤).

وأُتي بطائر، فقلَّبه ثم قال: ما صِيدَ مِن صَيدٍ ولا قُطعت من شجرة إلا بما ضيّعَتْ من التسبيح[١].

ولما احتضر قال لعائشة: يا بُنيَّة، إنِّي أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذا الحِلاب[٢]، وهذا العبد؛ فأسرعي به إلىٰ ابن الخطاب[٣].

وقال: واللهِ لودِدتُ أنِّي كنتُ هذه الشجرة، تؤكل وتُعضد![٤]

وقال قتادة: بلغني أنَّ أبا بكر قال: ودِدتُ أنِّي خَضِرةٌ تأكلني الدوابُّ[٥].

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور حتَّىٰ بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] فبكىٰ، واشتدَّ بكاؤه، حتىٰ مرض وعادُوه.

وقال لابنه وهو في الموت: وَيحك! ضَعْ خدِّي علىٰ الأرض عساه أن يرحمني. ثم قال: ويلَ أمِّي إن لم يغفر لي، ثلاثًا، ثم قضَىٰ[٦].

وكان يمرُّ بالآية في وِرده بالليل، فتَخْنِقه، فيبقىٰ في البيت أيامًا يُعاد، يحسبونه مريضًا[٧].

وكان في وجهه ﵁ خطَّان أسودان من البكاء[٨].

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦٦).

(٢) الحِلاب والمِحلَب: الإناء الذي يحلب فيه اللبن. النهاية (١/ ٤٢١).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٥٨٠).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٥٨٢).

(٦) أخرجه أبو داود في الزهد (٤٦).

(٧) أخرجه أحمد في الزهد (٦٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥١).

(٨) أخرجه أحمد في الزهد (٦٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥١).

وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل! فقال: وددتُ أنِّي أنجو، لا أجرَ ولا وِزرَ(١).

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلَّ لحيتَه(٢).

وقال: لو أنني بين الجنَّة والنار، لا أدري إلى أيِّهما يؤمَر بي، لاخترتُ أن أكون رمادًا، قبل أن أعلم إلى أيّهما أصير(٣).

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى.

قال: فأما طول الأمل فيُنْسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولَّت مدبرةً، والآخرةُ مقبلةٌ، ولكل واحدةٍ منهما بنون؛ فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ اليوم عملٌ ولا حسابَ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ(٤).

وهذا أبو الدرداء كان يقول: إنَّ أشدَّ ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علمتَ، فكيف عملتَ فيما علمتَ؟(٥)

وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة،

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٦٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم (٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧)، (٧٩٤٢).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٠).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٦٩٢)، وأبو داود في الزهد (١١٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٧٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٣).

ولا شربتم شرابًا علىٰ شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظِلُّون فيه، ولخرجتم إلىٰ الصعيد تضربون صدوركم وتبكون علىٰ أنفسكم. ولَوددتُ أنِّي شجرة تُعضَد ثم تؤكل[١].

وكان عبد الله بن عباس أسفلَ عينَيه مثلُ الشِّراك البالي من الدموع[٢].

وكان أبو ذرٍّ يقول: يا ليتني كنتُ شجرةً تعضَد، ووددتُ أنِّي لم أُخْلَق[٣].

وعُرضت عليه النفقة فقال: عندنا عَنْزٌ نحلبُها، وأحمِرَة ننقل عليها، ومُحرَّرٌ يخدمنا، وفضلُ عباءةٍ، وإنِّي أخاف الحسابَ فيها[٤].

وقرأ تميمٌ الداريُّ ليلةً سورة الجاثية، فلمّا أتىٰ علىٰ هذه الآية ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يردِّدها ويبكي حتىٰ أصبح[٥].

وقال أبو عبيدة بن الجراح: وددت أني كبش، فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي، وحَسَوا مَرَقي[٦].

وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في «صحيحه»[٧]: «باب خوف المؤمن من أن يَحْبَط عملُه وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التَّيمي: ما عرضتُ قولي علىٰ عملي إلا خشيتُ أن أكون

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٧٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٥٥٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٩).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٣).

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١)، ووكيع في الزهد (١٥٠).

(٦) أخرجه أحمد في الزهد (١٠٢٥).

(٧) في كتاب الإيمان، باب رقم (٣٦).

مكذَّبًا(١). وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلُّهم يخاف النفاقَ علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل(٢). ويُذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمِنَه إلا منافق(٣)».

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشُدك الله، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ؟ يعني: في المنافقين، فيقول: لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا(٤).

فسمعتُ شيخنا رحمه الله يقول: ليس مراده أنِّي لا أبرِّئ غيرك من النفاق، بل المراد: لا أفتح عليَّ هذا الباب، فكلُّ من سألني: هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ؟ فأزكيه.

قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب: «**سبقك بها عكاشة**»(٥). ولم يُرِد أنَّ عكاشة وحده أحقُّ بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر، وانفتح الباب، وربَّما قام من لم يستحق أن يكون منهم؛ فكان الإمساك أولىٰ، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٢٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري في تاريخه (٥/ ١٣٧)، وابن أبي خيثمة في تاريخه (٦٥١).

(٣) أخرجه الفريابي في المنافقين (٨٧). وانظر: فتح الباري لابن رجب (١/ ١٨٠).

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٢)، وقال: «رواه البزار ورجاله ثقات».

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

ص ٩٨
ضرر الذنوب على القلب كضرر السموم على البدن

فلنرجع إلىٰ ما كنّا فيه من ذكر دواء الداء الذي إن استمرَّ أفسد دنيا العبد وآخرته.

فممَّا ينبغي أن يعلم أنَّ الذنوب تضرُّ ولابدَّ، وأنَّ ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر.

وهل في الدنيا والآخرة شرٌّ وداءٌ إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟!

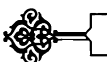
فما الذي أخرج الأبوين من الجنَّة دارِ اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟!

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرَدَه ولعَنَه، ومسَخ ظاهره وباطنه؛ فجُعِلَتْ صورتُه أقبحَ صورةٍ وأشنعَها؛ وباطنُه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّل بالقرب بُعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظَّىٰ، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظمَ عداوةٍ ومُشاقَّةٍ، وبزَجَل التسبيح والتقديس والتهليل زَجَلَ الكفرِ والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباسَ الكفر والفسوق والعصيان؟! فهان علىٰ الله غايةَ الهوان، وسقط من عينه غايةَ السقوط، وحلَّ عليه غضبُ الرب تعالىٰ فأهواه، ومقَتَه أكبر المقت فأرداه، فصار قوَّادًا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة!

فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي غرَّق أهل الأرض كلَّهم حتىٰ علا الماءُ فوق رؤوس الجبال؟!

وما الذي سلَّط الريحَ العقيمَ علىٰ قوم عادٍ حتىٰ ألقَتْهم موتىٰ علىٰ وجه الأرض



كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، ودمَّرت ما مرَّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابِّهم، حتىٰ صاروا عبرةً للأمم إلىٰ يوم القيامة؟!

وما الذي أرسل علىٰ قوم ثمود الصيحةَ حتىٰ قَطَّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟!

وما الذي رفع قرىٰ اللوطية حتىٰ سمعت الملائكةُ نبيحَ كلابهم، ثم قَلَبها عليهم، فجعل عالِيَها سافِلَها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارةً من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه علىٰ أمَّةٍ غيرهم؟!

ولإخوانهم أمثالُها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل علىٰ قوم شعيبٍ سحابَ العذاب كالظُّلل، فلمَّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظَّىٰ؟!

وما الذي أغرق فرعونَ وقومَه في البحر، ثم نُقلت أرواحُهم إلىٰ جهنَّم؟! فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟!

وما الذي أهلك القرون من بعد نوحٍ بأنواع العقوبات، ودمَّرها تدميرًا؟!

وما الذي أهلك قوم صاحب {يٰس} بالصيحة حتىٰ خمدوا عن آخرهم؟!

وما الذي بعث علىٰ بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسَبَوا الذرِّية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتَبَّرُوا ما عَلَوا تتبيرًا!

وما الذي سلَّط عليهم أنواعَ العقوبات مرةً بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرَّةً بجَور الملوك، ومرَّةً بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب ﷻ: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قال الإمام أحمد(١): حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: لما فتحت قبرس فُرِّق بين أهلها، فبكىٰ بعضهم إلىٰ بعض، ورأيت أبا الدرداء جالسًا وحدَه يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يومٍ أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَه؟ فقال: ويحك يا جبير! ما أهونَ الخلقَ علىٰ الله ﷻ إذا أضاعوا أمره! بينما هي أمةٌ قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمرَ الله، فصاروا إلىٰ ما ترىٰ!

وفي «مسند أحمد»(٢) من حديث أم سلمة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمَّهم اللهُ بعذابٍ من عنده**» فقلت: يا رسول الله، أما فيهم يومئذٍ أناسٌ صالحون؟ قال: «**بلىٰ**» قالت: فكيف يُصنَع بأولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناسَ، ثم يصيرون إلىٰ مغفرةٍ من الله ورضوان**».

وفي «المسند»(٣) من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرجل ليُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبه**».

وفي «سنن ابن ماجه»(٤) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: كنتُ عاشرَ عشرةِ رَهْطٍ من المهاجرين عند رسول الله ﷺ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «**يا معشرَ المهاجرين، خمسُ خصالٍ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: ما**

---

(١) في الزهد (٧٦٢).
(٢) (٦/ ٣٠٤) برقم (٢٦٥٩٦).
(٣) تقدّم تخريجه.
(٤) برقم (٤٠١٩).

ظهرت الفاحشةُ في قوم حتىٰ أعلنوا بها إلا ابْتُلُوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقَصَ قومٌ المكيالَ والميزانَ إلا ابتلُوا بالسنين وشدةِ المُؤنة وجَورِ السلطان، وما منع قوم زكاةَ أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من السماء؛ فلولا البهائمُ لم يُمطَروا، ولا خفَرَ قومٌ العهد إلا سلَّط اللهُ عليهم عدوَّهم من غيرهم؛ فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمَّتُهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسَهم بينهم».

وفي «المسند» و«السنن»[1] من حديث عمرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مَن كان قبلكم كان إذا عمل العاملُ فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيرًا[2]، فإذا كان الغدُ جالَسَه وواكَلَه وشارَبه، كأنه لم يره علىٰ خطيئةٍ بالأمس، فلما رأىٰ الله ﷻ ذلك منهم ضرَبَ بقلوب بعضهم علىٰ بعضٍ، ثم لعنهم علىٰ لسان نبيهم داود وعيسىٰ ابن مريم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾. والذي نفس محمَّدٍ بيده، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ علىٰ يد السفيه، ولتأطُرُنَّه علىٰ الحق أَطْرًا، أو لَيضرِبَنَّ اللهُ بقلوب بعضكم علىٰ بعض، ثم لَيلعنَنَّكم كما لعنَهم**».

وذكر ابن أبي الدنيا[3] عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أوحىٰ الله إلىٰ يُوشَع ابن نون: إنِّي مهلكٌ من قومك أربعين ألفًا من خيارهم وستّين ألفًا من شِرارهم. قال: يا ربِّ، هؤلاء الأشرار، فما بالُ الأخيار؟ قال: إنَّهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يؤاكِلونهم ويشاربونهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) برقم (٣٧١٣)، وأبو داود (٤٣٣٦، ٤٣٣٧)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) أي: ينهاه نهيًا يقصِّر فيه ولا يبالغ. انظر: النهاية (٣/ ١٩٨).

(٣) في العقوبات (١٣)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧١).

وذكر أبو عمر ابن عبد البر عن أبي هِزَّان قال: بعث الله ﷻ ملكَين إلىٰ قريةٍ أنْ: دمِّراها بمن فيها، فوجدا فيها رجلًا قائمًا يصلي في مسجد؛ فقالا: يا رب إن فيها عبدَك فلانًا يصلِّي! فقال الله ﷻ: دمِّراها، ودمِّراه معها؛ فإنه ما تمعَّر وجهُه فيَّ قط[1].

وذكر الحميدي عن سفيان بن عيينة قال: حدثني سفيان بن سعيد، عن مسعر: أنَّ ملكًا أُمِرَ أن يخسِفَ قريةً؛ فقال: يا ربِّ إنَّ فيها فلانًا العابد؛ فأوحىٰ الله ﷻ إليه أنْ: به فابدَأْ، فإنه لم يتمعَّر وجهُه فيَّ ساعةً قطُّ[2].

وذكر الإمام أحمد في «مسنده»[3] من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق ﷺ: أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية، وإنكم تضعونها علىٰ غير مواضعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناسَ إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا علىٰ يديه** -وفي لفظ: **إذا رأوا المنكرَ فلم يغيِّروه- أوشك أن يعُمَّهم اللهُ بعقاب من عنده**».

وذكر الإمام أحمد[4] عن مالك بن دينار قال: كان حَبْرٌ من أحبار بني إسرائيل يغشىٰ منزلَه الرجالُ والنساءُ، فيَعِظُهم، ويذكِّرهم بأيام الله، فرأىٰ بعضَ بنيه يومًا يغمِز النساء، فقال: مهلًا يا بُنيَّ، مهلًا يا بني؛ فسقط من سريره، فانقطع نُخاعه، وأسقطت امرأته، وقُتل بنوه، فأوحىٰ الله إلىٰ نبيهم أن أخبِرْ فلانًا الحَبْرَ أني لا أخرج من صلبك صِدِّيقًا أبدًا؛ ما كان غضبُك لي إلا أن قلتَ: مهلًا يا بني، مهلًا يا بني!

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٤)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٠).

(٣) (١/ ٢، ٧) برقم (١، ١٦، ٢٩، ٣٠، ٣٥)، وأخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٣٠٤).

(٤) في الزهد (٥٢٤).

وفي «صحيح البخاري»[١] عن أنس بن مالك قال: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدقّ في أعينكم من الشعر، إنْ كنَّا لَنعُدُّها علىٰ عهد رسول ﷺ من الموبقات.

وفي «الصحيحين»[٢] من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**عُذِّبت امرأةٌ في هِرَّةٍ حبَسَتْها حتىٰ ماتت، فدخلت النار؛ لا هي أطعمَتْها، ولا سقَتْها، ولا تركَتْها تأكل من خَشاش الأرض**».

وفي «الحِلية» لأبي نعيم[٣] عن حذيفة: أنه قيل له: في يوم واحدٍ تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه، وإذا نُهوا عن شيءٍ ركبوه، حتىٰ انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه.

ومن هاهنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت[٤].

وفي «الحلية» أيضًا[٥] **عن ابن عباس أنه قال: يا صاحب الذنب لا تأمَنْ سوءَ عاقبته**، ولَما يتبع الذنبَ أعظمُ من الذنب إذا عملتَه؛ قلَّةُ حيائك ممن علىٰ اليمين وعلىٰ الشمال وأنت علىٰ الذنب أعظمُ من الذنب، وضحِكُكَ وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظمُ من الذنب، وفرحُك بالذنب إذا ظفرت به أعظمُ من الذنب، وحزنُك علىٰ الذنب إذا فاتك أعظمُ من الذنب، وخوفُك من الريح إذا حرَّكَتْ سِترَ بابك وأنت

---

(١) برقم (٦٤٩٢). (٢) سبق تخريجه.

(٣) الحلية (١/ ٢٧٩).

(٤) هو من كلام أبي حفص النيسابوري، شيخ الصوفية بخراسان (ت٢٦٤ هـ)، في طبقات الصوفية (١١٦)، والحلية (١٠/ ٢٤٤).

(٥) (١/ ٣٢٤) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وجويبر ضعيف جدًّا، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

علىٰ الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظمُ من الذنب! ويحك! هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين علىٰ ظالم يَدْرَؤُه عنه، فلم يُغِثْه، ولم يَنْهَ الظالم عن ظلمه، فابتلاه الله.

وقال الإمام أحمد[١]: حدثنا الوليد قال: سمعتُ الأوزاعي يقول: سمعتُ بلال ابن سعد يقول: **لا تنظر إلى صِغَر الخطيئة، ولكن انظر مَن عصيت.**

وقال الفُضَيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنبُ عندك يَعْظُمُ عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يَصْغُرُ عند الله[٢].

وقيل: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ: يا موسىٰ، إن أول من مات من خلقي إبليس، وذلك أنَّه عصاني، وإنّما أعُدُّ من عصاني من الأموات[٣].

وفي «المسند» و«جامع الترمذي»[٤] من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمن إذا أذنب نُكِتَ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإن تاب ونَزَع واستغفر صُقِلَ قلبه، وإنْ زاد زادت حتىٰ تعلوَ قلبَه، فذلك الرَّانُ الذي ذكر الله** ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]». قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال حذيفة: إذا أذنب العبد نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء حتىٰ يصيرَ قلبُه كالشاة الرَّبْداء[٥].

---

(١) هو فيه من زوائد عبد الله علىٰ الزهد (٢٢٧٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٦٤). (٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٤٢).

(٤) أحمد (٢/ ٢٩٧) برقم (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٢٤٤)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٩٣٠)، والحاكم (٢/ ٥٦٢) برقم (٣٩٠٨).

(٥) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٨٥). والربداء: السَّوداء المُنَقَّطة بحُمرة. اللسان (ربد).

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب «الزهد» لأبيه[١] عن محمَّد بن سيرين: أنّه لمَّا رَكِبه الدَّينُ اغتمَّ لذلك، فقال: إنِّي لأعرِفُ هذا الغمَّ بذنبٍ أصبتُه منذ أربعين سنة!

وهاهنا نكتة دقيقة يغلَطُ فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنَّهم لا يرون تأثيرَه في الحال، وقد يتأخَّر تأثيرُه فيُنسَى، ويظنُّ العبدُ أنه لا يغبِّر بعد ذلك.

وأنَّ الأمر كما قال القائل:

إذا لم يغبِّرْ حائطٌ في وقوعه فليس له بعدَ الوقوع غبارُ

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه البليَّةُ مِن الخلق! وكم أزالت من نعمة! وكم جلبت من نقمة!

وما أكثرَ المغترِّين بها من العلماء، فضلًا عن الجُهَّال! ولم يعلم المغترُّ أنَّ الذنب ينقُض، ولو بعد حين، كما ينقُض السمُّ، وكما ينقُض الجرحُ المُندَمِلُ على الغِشِّ والدَّغَل.

وقد ذكر الإمام أحمد[٢] عن أبي الدرداء: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعُدُّوا أنفسَكم في الموتى، واعلموا أنَّ قليلًا يُغنيكم خيرٌ من كثير يُلهيكم، واعلموا أنَّ البِرَّ لا يَبْلى، وأنَّ الإثم لا يُنسى.

ونظر بعض العُبَّاد إلى صبيٍّ، فتأملَّ محاسنَه، فأُتِيَ في منامه وقيل له: لَتجِدَنَّ غِبَّها بعد أربعين سنة[٣].

---

(١) ليس في المطبوع، وهو ناقص، وقد أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٧١).

(٢) في الزهد (٧١٦).

(٣) تاريخ دمشق (٦/ ٨٤).

هذا، مع أنَّ للذنب نقدًا معجَّلًا لا يتأخر عنه.

قال سليمانُ التَّيمي: إنَّ الرجل لَيصيبُ الذنبَ في السرِّ، فيصبح وعليه مَذَلَّته[١].

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: عجبتُ من ذي عقلٍ يقول في دعائه: اللهم لا تُشْمِتْ بي الأعداءَ! ثم هو يُشْمِتُ بنفسه كلَّ عدوٍّ له! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله فيُشْمِتُ به في القيامة كلَّ عدوٍّ.

فصل

ص ١٣٢
من آثار المعاصي القبيحة

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمُضرَّة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: **حرمان العلم**؛ فإنَّ العلم نورٌ يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولمَّا جلس الشافعيُّ بين يدي مالكٍ وقرأ عليه، أعجبه ما رأىٰ من وُفور فِطْنَتِه، وتوقُّدِ ذكائه، وكمالِ فهمه، فقال: إني أرىٰ اللهَ قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورًا؛ فلا تطفئه بظلمة المعصية[٢].

وقال الشافعي:

شكوتُ إلىٰ وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدَني إلىٰ ترك المعاصي
وقال اعْلَمْ بأنَّ العلمَ فضلٌ ... وفضلُ الله لا يؤتاه عاصِ[٣]

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٥).
(٢) تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ٢٨٦).
(٣) ديوان الشافعي (٢٧).

ومنها: **حرمان الرزق**. وفي المسند: «**إنَّ العبد لَيُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبُه**» وقد تقدَّم.

ومنها: **وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله**، لا يوازِنُها ولا يقارِنُها لذةٌ أصلًا، ولو اجتمعت له لذَّاتُ الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحسُّ به إلا من في قلبه حياة.

وما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ(١)

ومنها: **الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس**، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنَّه يجد وحشةً بينه وبينهم، وكلَّما قويت تلك الوحشةُ بَعُدَ منهم ومِن مجالستهم، وحُرِمَ بركةَ الانتفاع بهم، وقرُبَ من حزب الشيطان بقدر ما بعُد من حزب الرحمن، وتقوىٰ هذه الوحشةُ حتىٰ تستحكم؛ فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه؛ فتراه مستوحشًا من نفسه!

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرىٰ ذلك في خُلُق دابَّتي وامرأتي(٢).

ومنها: **تعسير أموره عليه**؛ فلا يتوجَّه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسِّرًا عليه.

ومنها: **ظلمةٌ يجدها في قلبه حقيقةً**، يحسُّ بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادْلَهَمَّ؛ فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظلمة الحسِّية لبصره.

قال عبد الله بن عباس: إنَّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإنَّ للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبِغْضَةً في قلوب الخلق.

---

(١) عجز بيت لأبي الطيب المتنبي في ديوانه (٢٤٥)، وصدره:

من يَهُنْ يسهُلِ الهوانُ عليه

(٢) من كلام الفضيل بن عياض. انظر: الحلية (٨/ ١٠٩).

ومنها: **أنَّ المعاصي توهن القلب والبدن.**

ومنها: **حِرمان الطاعة.**

ومنها: **أن المعاصي تُقصِّر العمر**، وتَمْحَقُ بركته ولابدَّ؛ فإنَّ البرَّ كما يزيد في العمر؛ فالفجور يقصِّر العمر.

ومنها: **أنَّ المعاصي تزرع أمثالَها**، ويُولِّد بعضُها بعضًا؛ حتىٰ يعزُّ علىٰ العبد مفارقتُها، والخروج منها.

كما قال بعض السلف: إنَّ من عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها، وإنَّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها[١].

ولا يزال العبدُ يعاني الطاعة، ويألَفُها، ويحبُّها، ويؤثرُها حتىٰ يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكةَ تؤزُّه إليها أزًّا، وتحرِّضُه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي، ويحبُّها، ويؤثرها، حتَّىٰ يرسل الله عليه الشياطين فتؤزُّه إليها أزًّا.

ومنها -وهو من أخوَفِها علىٰ العبد- **أنها تُضعِف القلبَ عن إرادته**؛ فتقوىٰ إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا إلىٰ أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية.

ومنها: **أنه ينسلخ من القلب استقباحُها**؛ فتصير له عادةً، فلا يَستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له ولا كلامَهم فيه.

وهذا الضرب من الناس لا يُعافَون، وتُسَدُّ عليهم طريقُ التوبة، وتُغلَق عنهم أبوابُها في الغالب.

---

(١) نسبه شيخ الإسلام إلىٰ سعيد بن جبير. مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١١).

كما قال النبي ﷺ: «**كل أمتي معافًىٰ إلا المُجاهرين، وإنَّ من الإجهار أن يستُرَ اللهُ علىٰ العبد، ثم يُصبِح يفضَح نفسَه ويقول: يا فلانُ، عملتُ يومَ كذا وكذا: كذا وكذا، فيَهتِكُ نفسَه، وقد بات يَستُرُه ربُّه**»[1].

ومنها: **أنَّ كلَّ معصيةٍ من المعاصي فهي ميراثٌ عن أمةٍ من الأمم التي أهلكها اللهُ** ﷻ؛ فاللوطية ميراث عن قوم لوط، وأخذُ الحق بالزائد ودفعُه بالناقص ميراث عن قوم شعيب، والعلوُّ في الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقومه، والتكبُّر والتجبُّر ميراث عن قوم هود؛ فالعاصي لابِسٌ ثيابَ بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

ومنها: **أن المعصية سبب لهوانِ العبد علىٰ ربه، وسقوطِه من عينه.**

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصَوه، ولو عزُّوا عليه لَعَصَمهم.

ومنها: **أن العبدَ لا يزال يرتكب الذنب حتَّىٰ يَهُون عليه**، ويصغر في قلبه، وذلك علامةُ الهلاك؛ فإنَّ الذنب كلَّما صَغُر في عين العبد عظُم عند الله.

وقد ذكر البخاري في «صحيحه»[2] عن ابن مسعودٍ قال: إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنَّه في أصل جبلٍ يَخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرىٰ ذنوبه كذُبابٍ وقع علىٰ أنفه، فقال به هكذا؛ فطار.

ومنها: **أنَّ غيره من الناس والدوابِّ يعود عليه شؤمُ ذنوبه**، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

---

(١) من حديث أبي هريرة ﵁ أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

(٢) برقم (٦٣٠٨).

ومنها: **أنَّ المعصية تورث الذلَّ** ولابدَّ؛ فإنَّ العزَّ كلَّ العزِّ في طاعة الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، أي: فليطلبها بطاعة الله؛ فإنّه لا يجدها إلا في طاعته.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميت القلوبَ ... وقد يورث الذلَّ إدمانُها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سَوء ورُهبانُها(١)

ومنها: **أنَّ المعاصي تفسد العقل**؛ فإنَّ للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل ولابدَّ؛ وإذا طفِئ نورُه ضعُفَ ونقَصَ.

ومنها: **أنَّ الذنوب إذا تكاثرت طُبعَ علىٰ قلب صاحبها**؛ فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] قال: هو الذنب بعد الذنب(٢).

ومنها: **أنَّ الذنوب تُدخل العبدَ تحت لعنة رسول الله ﷺ**؛ فإنَّه لعن علىٰ معاصٍ، وغيرُها أكبرُ منها؛ فهي أولىٰ بدخول فاعلها تحت اللعنة.

ومنها: **حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة**؛ فإنَّ الله سبحانه أمر نبيَّه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ

---

(١) بهجة المجالس (٣/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٨١٢).

عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

ومن آثار الذنوب والمعاصي: **أنها تُحدِث في الأرض أنواعًا من الفساد في** المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ومن تأثير معاصي الله في الأرض: ما يَحِلُّ بها من الخسف، والزلازل، ومَحْقِ بركتِها.

ومن عقوبات الذنوب: **أنَّها تطفئ من القلب نارَ الغَيرة** التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن؛ فالغَيرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخَبَث والصفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَث الذهب والفضة والحديد، وأشرفُ الناسِ وأعلاهم همَّةً أشدُّهم غيرةً علىٰ نفسه وخاصته وعموم الناس.

ولهذا كان النبي ﷺ أغيرَ الخلق علىٰ الأمة، والله سبحانه أشدُّ غيرةً منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**أتعجبون من غيرة سعدٍ! لَأنا أغيَرُ منه، والله أغيَرُ منِّي**»(١).

فالغيور قد وافق ربَّه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادَتْه تلك الصفةُ إليه بزمامه، وأدخلَتْه على ربِّه، وأدْنَتْه منه، وقرَّبَتْه من رحمته، وصيَّرتْه محبوبًا له؛ فإنه سبحانه رحيم يحبُّ الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحبُّ العلماء، قوي يحبُّ المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف(٢)،

---

(١) من حديث المغيرة بن شعبة ﵁ أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﵁ أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

حَيِيٌّ يحبُّ أهل الحياء(١)**، جميل يحبُّ الجمال**(٢)**، وِتْرٌ يحبُّ الوتر**(٣).

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلَّا أنها توجب لصاحبها ضدَّ هذه الصفات، وتمنعه من الاتصاف بها لكفىٰ بها عقوبةً؛ فإنَّ الخطرة تنقلب وسوسةً، والوسوسةَ تصيرُ إرادةً، والإرادةَ تقوىٰ فتصير عزيمةً، ثم تصير فعلًا، ثم تصير صفةً لازمةً، وهيئةً ثابتةً راسخةً؛ وحينئذٍ يتعذَّر الخروجُ منها كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به.

ومن عقوباتها: **ذهابُ الحياء** الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصلُ كلِّ خيرٍ، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**الحياء خيرٌ كلُّه**»(٤).

ومن عقوبات الذنوب: **أنَّها تُضْعِف في القلب تعظيمَ الربِّ** ﷻ، وتُضْعِف وقارَه في قلب العبد ولابدَّ، شاء أم أبىٰ، ولو تمكَّن وقارُ الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرَّأ علىٰ معاصيه.

ومن عقوباتها: **أنَّها تستدعي نسيانَ الله لعبده، وتركَه، وتَخْليتَه بينه وبين نفسه وشيطانه**، وهناك الهلاك الذي لا يرجىٰ معه نجاة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨ - ١٩].

---

(١) كما في حديث يعلىٰ بن أمية، أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٤).

(٢) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه مسلم (٩١).

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٤) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أخرجه مسلم (٣٧).

ومن عقوباتها: **أنَّها تُخرِجُ العبدَ من دائرة «الإحسان» وتمنعه ثوابَ المحسنين**؛ فإنَّ الإحسان إذا باشر القلبَ منَعَه من المعاصي؛ فإن مَن عَبَد الله كأنَّه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبَّته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مُواقعتها.

ومن عقوباتها: **أنها تُضْعِفُ سيرَ القلب إلى الله والدار الآخرة**، أو تَعُوقه، أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدَعه يخطو إلى الله خطوةً؛ هذا إن لم تردَّه عن وجهته إلى ورائه! فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، ويُنكِّس الطالب.

ومن عقوبات الذنوب: **أنها تُزيل النعم وتُحِلُّ النِّقَم**؛ فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلَّت به نقمة إلا بذنب.

كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِع بلاءٌ إلا بتوبة(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]. فأخبر تعالى أنه لا يُغيِّر نِعَمه التي أنعم بها على أحدٍ حتى يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه؛ فيغيِّر طاعةَ الله بمعصيته، وشكرَه بكفره، وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيَّر غُيِّر عليه جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّام للعبيد؛ فإنْ غيَّر المعصيةَ بالطاعة غيَّر الله عليه العقوبةَ بالعافية، والذلَّ بالعز.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) نسبه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٣) إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وقد ورد من دعاء العباس بن عبد المطلب في الاستسقاء، أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٢٦/ ٣٥٩).

ومن عقوباتها: **ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي؛ فلا** تراه إلَّا خائفًا مرعوبًا.

ومن عقوباتها: **أنها تُوقعُ الوحشةَ العظيمةَ في القلب**؛ فيجد المذنب نفسَه مستوحشًا، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربِّه، وبينه وبين الخلق، وبينه وبين نفسه.

وسِرُّ المسألة: أنَّ الطاعة تُوجب القربَ من الربّ، وكلَّما اشتدَّ القرب قوي الإنس؛ والمعصية توجب البعدَ من الربِّ، وكلَّما ازداد البعدُ قويت الوحشة.

ومن عقوباتها: **أنها تصرِفُ القلبَ عن صحَّته واستقامته إلىٰ مرضه وانحرافه، وقد أجمع السائرون إلى الله أنَّ القلوب لا تعطَى مُناها حتَّى تصِلَ إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحةً سليمةً حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصحُّ لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرضُ قتَلَ أو كاد.**

وكما أنَّ من نهىٰ نفسه عن الهوىٰ كانت الجنَّة مأواه؛ فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيمَ أهلها نعيمٌ ألبتة، بل التفاوت الذي بين النعيمَين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدِّقُ به إلا من باشر قلبَه هذا وهذا.

ولا تحسَبْ أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤] مقصورٌ علىٰ نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دُورهم الثلاثة هم كذلك، أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار؛ فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم.

وهل النعيم إلا نعيم القلب! وهل العذاب إلا عذاب القلب!

وأيُّ عذاب أشدُّ من الخوف، والهمِّ، والحزن، وضيق الصدر، وإعراضِه عن الله والدار الآخرة، وتعلُّقِه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكلِّ وادٍ منه شعبة؟! وكلُّ شيء تعلَّق به وأحبَّه من دون الله فإنَّه يسومه سوءَ العذاب.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا، وأنسًا بربِّه واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبِّه وطمأنينةً بذكره، حتىٰ يقول بعضهم في حال نزعه: وا طَرَباه![1]

ويقول الآخر: إن كان أهل الجنَّة في مثل هذه الحال إنَّهم لفي عيش طيب![2]

ويقول الآخر: مساكين أهلُ الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها وما ذاقوا أطيب ما فيها!

ويقول الآخر[3]: لو عَلِم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالَدُونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إنّ في الدنيا جَنَّةً، من لم يدخُلْها لم يدخُلْ جنة الآخرة[4].

ومن عقوباتها: **أنَّها تُعمي بصيرَة القلب، وتطمِس نورَه، وتسدُّ طرق العلم، وتحجب موادَّ الهداية.**

ومن عقوباتها: **أنَّها تصغِّر النفس، وتَقْمَعها، وتُدسِّيها، وتحقِّرها**؛ حتىٰ تصير أصغرَ شيءٍ وأحقرَه، كما أنَّ الطاعة تنمِّيها وتزكِّيها وتكبِّرها، قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

---

(١) جاء نحوه عن التابعي الجليل بلال بن سعد الدمشقي، أخرجه ابن أبي الدنيا في المحتضَرين (٢٩٤).

(٢) نقل ابن الجوزي نحوه عن أبي سليمان المغربي في صفة الصفوة (٢/ ٣٦٩).

(٣) هو الزاهد المشهور إبراهيم بن أدهم البلخي (ت١٦٢)، أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦/ ٣٠٣، ٣٦٦).

(٤) نسبه في المدارج (١/ ٥٣٦) والوابل الصيب (١٠٩) إلىٰ شيخ الإسلام، وقد سمع ذلك منه.

ومن عقوباتها: **أنَّ العاصي دائمًا في أسْرِ شيطانه**، وسجنِ شهواته، وقيود هواه؛ فهو أسير مسجون مقيَّد.

ومن عقوباتها: **سقوطُ الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه**؛ فإنَّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربَهم منه منزلةً أطوَعُهم له، وعلىٰ قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده؛ فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده.

ومن عقوباتها: **أنَّها تسلُبُ صاحبَها أسماءَ المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذمِّ والصَّغار.**

ومن عقوباتها: **أنها تؤثِّر بالخاصِّية في نقصان العقل**؛ فلا تجد عاقلَين أحدهما مطيع لله، والآخَرُ عاصٍ، إلا وعقلُ المطيع منهما أوفَرُ وأكمل، وفكره أصحُّ، ورأيه أسدُّ، والصواب قرينه.

ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب، كقوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ونظائر ذلك كثيرة.

ومن أعظم عقوباتها: **أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه** ﷻ، وإذا وقعت القطيعةُ انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشرِّ.

ومن عقوباتها: **أنها تمحَقُ بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة**؛ وبالجملة، تمحق بركة الدين والدنيا.

ومن عقوباتها: **أنها تجعل صاحبَها من السِّفْلة** بعد أن كان مُهَيَّأً لأنْ يكون من العِلْية؛ فكلَّما عمل العبد معصيةً نزل إلىٰ أسفلَ درجةً، ولا يزال في نزول حتىٰ يكون

من الأسفلين، وكلَّما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتىٰ يكون من الأعلَين، وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه، والنزول من وجه، وأيُّهما كان أغلبَ عليه كان من أهله؛ فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض هاهنا للنفوس غلط عظيم، وهو أنَّ العبد قد ينزل نزولًا بعيدًا أبعدَ مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض؛ فلا يفي صعودُه ألفَ درجةٍ بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ العبد لَيتكلَّم بالكلمة الواحدة لا يُلقي لها بالًا، يهوي بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب»[1] فأيُّ صعود يوازي هذه النزلة!

والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلىٰ غفلة؛ فهذا متىٰ استيقظ من غفلته عاد إلىٰ درجته، أو إلىٰ أرفعَ منها بحسب يقظته، ومنهم من يكون نزوله إلىٰ معصية؛ إما صغيرة أو كبيرة، فهذا يحتاج في عوده إلىٰ درجته إلىٰ توبةٍ نَصوحٍ وإنابة صادقة.

واختلف الناس؛ هل يعود بعد التوبة إلىٰ درجته التي كان فيها، بناءً علىٰ أنَّ التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجودَه كعدمه فكأنَّه لم يكن؛ أو لا يعود بناءً علىٰ أنَّ التوبة تأثيرُها في إسقاط العقوبة، وأما الدرجة التي فاتَتْه فإنَّه لا يصل إليها؟

قالوا: ومَثَلُ ذلك رجلان مرتقيان في سُلَّمَين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلىٰ أسفل ولو درجةً واحدةً، ثم استأنف الصعود، فإنَّ الذي لم ينزل يعلو عليه، ولا بدَّ.

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكمًا مقبولًا فقال: التحقيق أنَّ من التائبين من يعود إلىٰ أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلىٰ مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلىٰ درجته.

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصيةُ للعبد من الذلِّ والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشيته؛ فقد تقوىٰ هذه الأمور حتىٰ يعود التائبُ إلىٰ أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

فهذا قد تكون الخطيئة في حقِّه رحمةً؛ فإنَّها نفتْ عنه داءَ العجب، وخلَّصَتْه من ثقته بنفسه وأعماله، ووضعتْ خدَّ ضراعته وذلِّه وانكساره علىٰ عتبة باب سيِّده ومولاه، وعرَّفتْه قدرَه، وأشهدَتْه فقرَه وضرورتَه إلىٰ حفظ سيِّده له، وإلىٰ عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجَتْ من قلبه صَولةَ الطاعة، وكسرتْ أنفَه من أن يَشْمَخَ بها، أو يتكبَّر بها، أو يرىٰ نفسه بها خيرًا من غيره؛ وأوقفته بين يدي ربه موقفَ الخطَّائين المذنبين ناكسَ الرأس بين يدي ربِّه، مستَحْيِيًا منه، خائفًا وجِلًا، محتقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، قد عرف نفسَه بالنقص والذمِّ، وربَّه منفردًا بالكمال والحمد والوفاء، كما قيل:

استأثَرَ اللهُ بالوفاء وبالـ ـحمد وولَّى الملامةَ الرَّجُلا[1]

فأيُّ نعمةٍ وصلت من الله إليه استكثرها علىٰ نفسه، ورأىٰ نفسه دونها، ولم يرها أهلًا لها، وأي نقمة أو بليَّة وصلت إليه رأىٰ نفسه أهلًا لما هو أكبر منها، ورأىٰ مولاه قد أحسن إليه؛ إذ لم يعاقبه علىٰ قدر جُرمه ولا شطرِه ولا أدنىٰ جزءٍ منه.

---

(١) من قصيدة منسوبة إلىٰ الأعشىٰ في ديوانه (٣٨٢)، والرواية المشهورة: «بالوفاء وبالعدل».

فإنَّ ما يستحقُّه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلًا عن هذا العبد الضعيف العاجز؛ فإنَّ الذنب وإن صغر، فإنَّ مقابلةَ العظيم الذي لا شيءَ أعظمُ منه، الكبيرِ الذي لا شيءَ أكبر منه، الكريمِ الذي لا أجلَّ منه ولا أجملَ، المُنعِمِ بجميع أصناف النعم دقيقِها وجليلِها من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها؛ فإنَّ مقابلةَ العظماء والأجلَّاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كلُّ أحد، مؤمن وكافر، وأرذلُ الناس وأسقطُهم مروءةً مَن قابلَهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض، وملِك السماوات والأرض، وإلهِ أهل السماوات والأرض؟!

ولولا أنَّ رحمتَه غلبت غضبَه، ومغفرتَه سبقت عقوبتَه، وإلَّا لتَدَكْدكت الأرضُ بمن قابَلَه بما لا تليق مقابلتُه به، ولولا حلمُه ومغفرته لزالت السماوات والأرض من معاصي العباد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. فتأمَّلْ ختمَ هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما الحليم الغفور، كيف تجد تحت ذلك أنَّه لولا حلمُه عن الجُناة ومغفرتُه للعصاة لما استقرَّت السماوات والأرض.

وقد أخبر سبحانه عن بعض كُفرِ عباده أنه ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنَّة بذنبٍ واحدٍ ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعَنَ إبليسَ وطرَدَه وأخرجه من ملكوت السماء بذنبٍ ارتكبه، وخالف فيه أمرَه.

ونحن -معاشرَ الحمقى- كما قيل:

نصِلُ الذنوبَ إلى الذنوب ونرتجي   دَرَكَ الجِنانِ لدى النعيمِ الخالدِ[1]

---

(١) الدرَك: اللّحاق، وهو اسم من الإدراك، (المصباح المنير).

ولقـد علمنا أخـرَجَ الأبوَيـنِ مِن ملكوتها الأعلى بذنب واحد[١]

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأرفعَ درجةً، وقد تُضعِف الخطيئةُ همَّتَه، وتُوهن عزمَه، وتُمرض قلبَه؛ فلا يقوىٰ دواء التوبة علىٰ إعادته إلىٰ الصحة الأولىٰ، فلا يعود إلىٰ درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت، ويعود إلىٰ مثل عمله، فيعود إلىٰ درجته.

ومن عقوباتها: **أنَّها تُجرِّئ علىٰ العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات.**

فيجترئ عليه الشياطين بالأذىٰ، والإغواء، والوسوسة، والتخويف، والتحزين، وإنسائه ما مصلحتُه في ذكره ومضرَّتُه في نسيانه، ويجترئ عليه شياطينُ الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غَيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهلُه وخدمه وأولاده وجيرانه، حتَّىٰ الحيوان البهيم!

قال بعض السلف: إنِّي لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابَّتي[٢].

ومن عقوباتها: **أنَّها تخون العبدَ أحوجَ ما يكون إلىٰ نفسه.**

والمقصود: أنَّ العبد إذا وقع في شدَّةٍ أو كربةٍ أو بليَّةٍ خانه قلبُه ولسانُه وجوارحُه عمَّا هو أنفع شيء له؛ فلا ينجذب قلبه للتوكُّل علىٰ الله، والإنابة إليه، والجمعيَّة عليه، والتضرُّع والتذلُّل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانُه لذكره، وإنْ ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبسَ القلبُ علىٰ اللسان بحيث يؤثِّر الذكر، ولا ينحبسُ القلب واللسان علىٰ المذكور، بل إن ذكَرَ أو دعا ذكَرَ بقلب لاهٍ ساهٍ

---

(١) البيتان لمحمود الورّاق في عيون الأخبار (٢/ ٣٧٤)، والكامل (٥١٤)، والعقد (٣/ ١٧٩)، مع اختلاف.

(٢) من كلام الفضيل بن عياض، وقد تقدَّم.

غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقَدْ له، ولم تطاوعه.

هذا، وثَمَّ أمرٌ أخوَفُ من ذلك وأدهىٰ منه وأمرُّ، وهو أن يخونه قلبُه ولسانُه عند الاحتضار والانتقال إلىٰ الله تعالىٰ، فربَّما تعذَّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناسُ كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك.

حتَّىٰ قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله، فقال: آه! آه! لا أستطيع أن أقولها!

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال: شاه، رُخّ[1] غلبتُك! ثم قضىٰ.

وقيل لآخر: قل: (لا إله إلا الله) فقال:

يـا رُبَّ قائلـةٍ يومًـا وقـد تعبَـتْ   كيفَ الطريقُ إلىٰ حمَّام مِنجابِ[2]

ثم قضىٰ[3].

وقيل لآخر: قل: (لا إله إلا الله) فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاننا تنتنا. حتىٰ قَضىٰ.

وقيل لآخر ذلك فقال: وما ينفعني ما تقول، ولم أدَعْ معصية إلا ركبتُها! ثم قضىٰ، ولم يقُلْها.

وقيل لآخر ذلك فقال: وما يغني عنِّي، وما أعرف أنِّي صلَّيتُ لله صلاةً! ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك فقال: هو كافر بما تقول! وقضىٰ.

وقيل لآخر ذلك فقال: كلَّما أردتُ أن أقولَها فلساني يُمسِك عنها.

---

(١) الشاه والرُّخّ من قطع الشطرنج.

(٢) حمَّام منجاب: بالبصرة منسوب إلىٰ الصحابي مِنجاب بن راشد الضَّبِّي. قاله ابن قتيبة في المعارف (٦١٤).

(٣) كتاب المحتضرين (١٧٨)، التعازي والمراثي (٢٥٢).

وأخبرني من حضر بعض الشحَّاذين عند موته، فجعل يقول: لله فَلْس! لله فَلْس! حتَّىٰ قضىٰ.

وأخبرني بعضُ التجَّار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، فجعلوا يلقِّنونه: (لا إله إلا الله) وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذه مشترىً جيِّد، هذه كذا! حتىٰ قضىٰ.

وسبحان الله! كم شاهد الناسُ من هذا عِبَرًا! والذي يخفىٰ عليهم من أحوال المحتضَرين أعظم وأعظم.

فهناك ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيف يوفَّق لحسن الخاتمة من أغفل اللهُ سبحانه قلبَه عن ذكره، واتَّبَعَ هواه، وكان أمره فُرُطًا! فبعيدٌ من قلبٍ بعيدٍ من الله تعالىٰ، غافلٍ عنه، متعبِّدٍ لهواه، أسيرٍ لشهواته، ولسانٍ يابسٍ من ذكره، وجوارحَ معطَّلةٍ من طاعته مشتغلةٍ بمعصيته أن توفَّقَ للخاتمة بالحسنىٰ.

ولقد قطع خوفُ الخاتمة ظهورَ المتقين، وكأنَّ المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٩].

ومن عقوباتها: **أنَّها تعمي القلب، فإن لم تُعْمِه أضعفَتْ بصيرتَه ولابدَّ**، وقد تقدم بيانُ أنها تضعفه ولابدَّ، فإذا عَمِي القلبُ وضعف فاته من معرفة الهدىٰ وقوَّته علىٰ تنفيذه في نفسه وفي غيره، بحَسَبِ ضعف بصيرته وقوته.

فإنَّ الكمال الإنساني مداره علىٰ أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في

هذين الأمرين، وهما اللذان أثنىٰ الله سبحانه علىٰ أنبيائه بهما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥] فالأيدي: القوىٰ في تنفيذ الحقِّ، والأبصار: البصائر في الدين؛ فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه.

ومن عقوباتها: **أنّها مددٌ من الإنسان يُمِدُّ به عدوَّه عليه، وجيشٌ يقوّيه به علىٰ حربه.**

وذلك أن الله سبحانه ابتلىٰ هذا الإنسانَ بعدوٍّ لا يفارقه طرفةَ عينٍ؛ ينام ولا ينام عنه، ويغفل ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيلُه من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر علىٰ إيصاله إليه إلا أوصله، ويستعين عليه ببني أبيه من شياطين الجنِّ وغيرهم من شياطين الإنس؛ قد نصب له الحبائل، وبغاه الغوائل، ومدَّ حوله الأشراك، ونصب له الفِخاخ والشِّباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوَّكم وعدوَّ أبيكم، لا يفوتنَّكم، ولا يكنْ حظُّه الجنةَ وحظُّكم النارَ، ونصيبُه الرحمة ونصيبُكم اللعنة!

ولمَّا عَلِم سبحانه أنَّ آدم وبنيه قد بُلُوا بهذا العدوّ، وأنَّه قد سُلِّط عليهم، أمدَّهم بعساكرَ وجندٍ يلقَونه بها، وأمدَّ عدوَّهم أيضًا بجند وعساكرَ يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلىٰ الآخرة كنفَسٍ واحدٍ من أنفاسها.

ولم يسلِّط سبحانه هذا العدوَّ علىٰ عبده المؤمن الذي هو أحبُّ أنواع المخلوقات إليه إلا لأنَّ الجهاد أحبُّ شيء إليه، وأهله أرفعُ الخلق عنده درجاتٍ، وأقربُهم إليه وسيلةً؛ فعقد سبحانه لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذي هو محلُّ معرفتِه، ومحبَّتِه، وعبوديتِه، والإخلاصِ له، والتوكلِ عليه، والإنابةِ

إليه؛ فولَّاه أمرَ هذا الحرب، وأيَّده بجندٍ من الملائكة لا يفارقونه، معقِّبات من بين يديه ومن خلفه، يُعقِبُ بعضُهم بعضًا، كلَّما ذهب بَدَلٌ جاء بَدَلٌ آخر، يثبِّتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضُّونه عليه، ويَعِدُونه بكرامة الله، ويصبِّرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعةٍ، وقد استرحتَ راحة الأبد.

ثم أمدَّه سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه، فأرسل إليه رسوله، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوةً إلىٰ قوته، ومددًا إلىٰ مدده، وعُدَّةً إلىٰ عدَّته.

وأمدَّه مع ذلك بالعقل وزيرًا له ومدبّرًا، وبالمعرفة مشيرةً عليه ناصحةً له، وبالإيمان مثبّتًا له ومؤيدًا وناصرًا، وباليقين كاشفًا له عن حقيقة الأمر.

فانظر الآن فيك إلىٰ التقاء الجيشين واصطفاف العسكرين، وكيف تُدال مرةً، ويُدال عليك أخرىٰ!

أقبَلَ ملِكُ الكفر بجنوده وعساكره؛ فوجد القلبَ في حصنه جالسًا علىٰ كرسي مملكته، أمرُه نافذٌ في أعوانه، وجندُه قد حفُّوا به، يقاتلون عنه، ويدافعون عن حوزته، فلم يُمكِنْه الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه، فسأل عن أخصِّ الجند به وأقربهم منه منزلةً، فقيل له: هي النفس؛ فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فَعِدُوها به، ومَنُّوها إيَّاه، وانقشوا صورةَ المحبوب فيها في يقظتها ومنامها، فإذا اطمأنَّتْ إليه وسكَنَتْ عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها، ثم جُرُّوها بها إليكم.

فإذا خامرَتْ علىٰ القلب، وصارت معكم عليه، ملكتم ثغرَ العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل، فرابِطوا علىٰ هذه الثغور كلَّ المرابطة، فمتىٰ دخلتم منها إلىٰ القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخَن بالجراحات.

ولا تُخْلُوا هذه الثغور، ولا تمكِّنوا سريَّةً تدخل منها إلىٰ القلب فتُخرجَكم منها، وإن غُلِبتم فاجتهدوا في إضعاف السريَّةِ ووَهَنِها حتىٰ لا تصل إلىٰ القلب، وإنْ وصلتْ إليه ضعيفةً لا تغني عنه شيئًا.

فإذا استوليتم علىٰ هذه الثغور فامنعوا ثغرَ العين أن يكون نظرُه اعتبارًا، بل اجعلوا نظره تفرُّجًا واستحسانًا وتلهِّيًا، فإنْ استَرقَ نظرةَ عِبرةٍ فأفسِدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة؛ فإنَّه أقرب إليه، وأعلَق بنفسه، وأخفُّ عليه.

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يُفسِد عليكم الأمرَ، فاجتهدوا ألا تُدخِلوا منه إلا الباطلَ؛ فإنَّه خفيف علىٰ النفس تستحليه وتستملحه، وتخيَّروا له أعذبَ الألفاظ وأسحرَها للألباب، وامزجوه بما تهوىٰ النفوس مزجًا، وألقُوا الكلمة، فإنْ رأيتم منه إصغاءً إليها فزُجُّوه بأخواتها، وكلَّما صادفتم منه استحسان شيء فالْهَجُوا له بذكره.

وإيَّاكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء! فإن غُلِبتم علىٰ ذلك، ودخل من ذلك شيء، فحُولوا بينه وبين فهمه وتدبّره، والتفكر فيه.

ثم يقول: قوموا علىٰ ثغر اللسان، فإنَّه الثغر الأعظم، وهو قُبالة الملك[1] فأجْرُوا عليه من الكلام ما يضرُّه ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله تعالىٰ، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، أو التكلُّمِ بالعلم النافع.

ثم الْزَمُوا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها أن تبطش بما يضرُّكم أو تمشي فيه.

---

(١) قبالة الشيء: تجاهه، وما استقبلك منه.

واعلموا أنَّ أكبر عَونكم علىٰ لزوم هذه الثغور: مُصالحةُ النفس الأمَّارة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمِدُّوها واستمدُّوا منها، وكونوا معها علىٰ حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا في كسْرها وإبطالِ قواها، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلا بقطع موادِّها عنها، فإذا انقطعت موادُّها، وقويت موادُّ النفس الأمّارة، وأطاعت لكم أعوانُها، فاستنزِلُوا القلبَ من حصنه، واعزلوه عن مملكته، وولُّوا مكانَه النفسَ؛ فإنَّها لا تأمر إلا بما تهوَونه وتحبُّونه، ولا تجيئكم بما تكرهونه ألبتة، مع أنَّها لا تخالفكم في شيءٍ تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرَتْ إلىٰ فعله.

وبالجملة: فأعِدُّوا للأمور أقرانَها، وادخلوا علىٰ كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا عونًا له علىٰ تحصيلها.

واعلموا أنَّ منهم من يكون سلطانُ الشهوة عليه أغلب، وسلطان غضبه ضعيف مقهور، فخذُوا عليه طريقَ الشهوة، ودَعُوا طريق الغضب.

ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب، فلا تُخْلوا طريقَ الشهوة عليه، ولا تعطِّلوا ثغرَها، فإنَّ مَن لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحَرَىٰ ألا يملكها عند الشهوة، فزوِّجوا بين غضبه وشهوته، وامزجوا أحدهما بالآخر، وادعوه إلىٰ الشهوة من باب الغضب، وإلىٰ الغضب من طريق الشهوة.

والمقصود: أن الذنوب والمعاصي سلاحٌ ومددٌ يُمِدُّ بها العبدُ أعداءه، ويعينهم بها علىٰ نفسه؛ فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم علىٰ نفسه، وهذا غاية الجهل.

ومن عقوباتها: **أنها تُنسي العبد نفسَه**، فإذا نسي نفسَه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسىٰ العبدُ نفسَه؟ وإذا نسيَ نفسه، فأيَّ شيء يذكر؟ وما معنىٰ نسيانه نفسَه؟



قيل: نعم، ينسىٰ نفسَه أعظمَ نسيان، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]؛ فلما نسوا ربَّهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ فعاقب سبحانه من نسِيَه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنَّه أنساه نفسَه.

ونسيانُه سبحانه للعبد إهمالُه، وتركُه، وتخلِّيه عنه، وإضاعتُه؛ فالهلاك أدنىٰ إليه من اليد للفم!

وأما إنساؤه نفسَه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، يُنسيه ذلك جميعَه، فلا يُخطِره بباله، ولا يجعله علىٰ ذكره، ولا يصرف إليه همَّتَه فيرغبَ فيه؛ فإنه لا يمرُّ بباله حتىٰ يقصدَه ويُؤثِره.

وأيضًا فيُنسيه عيوبَ نفسه ونقصَها وآفاتِها؛ فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها.

وأيضًا يُنسيه أمراض نفسه وقلبه، وآلامَها؛ فلا يخطر بقلبه مداواتُها، ولا السعيُ في إزالة عللها وأمراضهَا التي تؤول به إلىٰ الفساد والهلاك؛ فهو مريض مثخَن بالمرض، ومرضه مُترامٍ به إلىٰ التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

ومن عقوباتها: **أنها تُزيل النِّعَمَ الحاضرةَ، وتقطع النعم الواصلة**، فتُزيل الحاصلَ، وتمنع الواصلَ.

ومن عقوباتها: **أنها تباعد عن العبد وليَّه**، وأنفعَ الخلقِ له، وأنصحَهم له، ومَن سعادتُه في قربه منه، وهو الملَك الموكَّلُ به، وتُدني منه عدوَّه، وأغشَّ الخلق له وأعظمَهم ضررًا له، وهو الشيطان؛ فإنَّ العبد إذا عصىٰ الله تباعد منه الملَك بقدر تلك المعصية، حتَّىٰ إنَّه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

فليس أحد أنفعَ للعبد من صحبة الملَك له، وهو وليُّه في يقظته ومنامه، وحياته، وعند موته، وفي قبره، ومؤنسُه في وحشته، وصاحبُه في خلوته، ومحدِّثُه في سرّه. يحارب عنه عدوَّه، ويدافعه عنه، ويعينه عليه، ويعِدُه بالخير، ويبشِّره به، ويحثُّه علىٰ التصديق بالحقّ.

كما جاء في الأثر الذي يروىٰ مرفوعًا وموقوفًا: «**إنَّ لِلملَكِ بقلب ابن آدم لَمَّةً، وللشيطان لَمَّةً؛ فلمَّةُ الملَك إيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالوعد، ولَمَّةُ الشيطان إيعاد بالشرِّ وتكذيب بالحق**»[1].

قال بعض الصحابة: «إنَّ معكم من لا يفارقكم، فاستحيُوا منهم وأكرِموهم»[2].

ولا ألأمَ ممَّن لا يستحيي من الكريم العظيم القدرِ، ولا يُجلّه، ولا يوقِّره، وقد نبَّه سبحانه علىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١١]، أي: استحيُوا هؤلاء الحافظين الكرامَ، وأكرِمُوهم، وأجِلُّوهم أن يروا منكم ما تستحيُوا أن يراكم عليه مَن هو مثلُكم.

والملائكة تتأذَّىٰ مما يتأذَّىٰ منه بنو آدم[3]؛ فإذا كان ابن آدم يتأذَّىٰ ممن يفجُرُ ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظنُّ بأذىٰ الملائكة الكرام الكاتبين! والله المستعان.

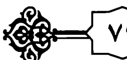
ومن عقوباتها: **أنّها تستجلب موادَّ هلاك العبد في دنياه وآخرته.**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، وصححه ابن حبان (٩٩٧)، ورجح الرازيان وقفه. انظر: علل ابن أبي حاتم (٢/ ٢٤٤- ٢٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٥٠) مرفوعًا وضعّفه.

(٣) كما في حديث جابر بن عبد الله ﷺ أخرجه مسلم (٥٦٤).



ص ٢٥٨
زجر الشارع عن المعاصي بالعقوبات

فصل

فإن لم ترُعْك هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيرًا في قلبك، فأحضِره العقوباتِ الشرعيةَ التي شرعها الله ورسوله علىٰ الجرائم، كما قطع اليد في سرقة ثلاثة دراهم، وقطَع اليدَ والرجلَ في قطع الطريق علىٰ معصوم المال والنفس، وشقَّ الجلدَ بالسوط علىٰ كلمة قذفٍ لمحصَن، أو قطرةِ خمرٍ يُدخِلها جوفَه، وقتَل بالحجارة أشنعَ قِتلةٍ في إيلاج الحشفة في فرج حرام، وخفَّف هذه العقوبة عمَّن لم يتم عليه نعمة الإحصان بمائة جَلدةٍ، ونفي سنة عن وطنه وبلده إلىٰ بلاد الغربة، وفرَّق بين رأس العبد وبدنه إذاَ وقع علىٰ ذاتِ رحمٍ محرَّم منه، أو ترَكَ الصلاةَ المفروضة، أو تكلم بكلمة كفر، وأمر بقتلِ من وطئ ذكرًا مثله وقتلِ المفعول به، وأمر بقتل من أتىٰ بهيمةً وقتلِ البهيمة معه، وعزم علىٰ تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة، وغير ذلك من العقوبات التي رتَّبها علىٰ الجرائم، وجعلها بحكمته علىٰ حسب الدواعي إلىٰ تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها.

فما كان الوازع عنه طبيعيًّا، وليس في الطباع داعٍ إليه، اكتفىٰ فيه بالتحريم مع التعزير ولم يُرتِّب عليه حدًّا، كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة، وما كان في الطباع داعٍ إليه رتَّب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعي الطبع إليه.

ولهذا؛ لما كان داعي الطباع إلىٰ الزِّنا من أقوىٰ الدواعي كانت عقوبته العظمىٰ أشنعَ القِتلات وأعظمَها، وعقوبته السهلة أعلىٰ أنواع الجَلْد مع زيادة التغريب، ولما كان اللواط فيه الأمران كان حدُّه القتلَ بكل حال، ولما كان داعي السرقة قويًّا، ومفسدتها كذلك، قطع فيها اليد.



وتأمَّلْ حكمتَه في إفساد العضو الذي باشرَ به الجناية، كما أفسد علىٰ قاطع الطريق يدَه ورجلَه اللتين هما آلة قطعه، ولم يُفسِدْ علىٰ القاذف لسانَه الذي جنىٰ به؛ إذ مفسدة قطعه تزيد علىٰ مفسدة الجناية ولا تبلغها، فاكتفىٰ من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فصل

ص ٢٦٠
عقوبات الذنوب نوعان: شرعية وقدرية

وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية وقدرية، فإذا أقيمت الشرعيةُ رفَعَتِ العقوباتِ القدريةَ أو خففتها، ولا يكاد الربُّ تعالىٰ يجمع علىٰ عبده بين العقوبتين، إلا إذا لم تفِ إحداهما برفع موجَب الذنب، ولم تكفِ في زوال دائه.

وإذا عُطِّلت العقوبات الشرعية استحالت قدريةً، وربما كانت أشدَّ من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنَّها تعمُّ، والشرعية تخصُّ؛ فإنَّ الرب ﷻ لا يعاقِب شرعًا إلا من باشر الجناية أو تسبَّب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامّةً وخاصّةً؛ فإنّ المعصية إذا خفيت لم تضرَّ إلا صاحبَها، وإذا أُعلِنت ضرَّت الخاصة والعامة، وإذا رأىٰ الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمَّهم الله بعقابه.

وقد تقدَّم أنَّ العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه علىٰ قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع له، وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع: القتل، والقطع، والجلد، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه، وهو الزنا واللواط؛ فإنَّ هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأنساب ونوع الإنسان، وجعل سبحانه القطعَ بإزاء إفساد الأموال الذي لا يمكن الاحتراز منه، وجعل الجَلْدَ بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته -سبحانه- الشرعية علىٰ هذه الأنواع الثلاثة، كما دارت الكفارات علىٰ ثلاثة أنواع: العتق -وهو أعلاها- والإطعام، والصيام.

فصل

ص ٢٦٧ العقوبات القدرية نوعان

وأما **العقوبات القدرية فهي نوعان**: نوع علىٰ القلوب والنفوس، ونوع علىٰ الأبدان والأموال.

والتي علىٰ القلوب نوعان:

أحدهما: آلام وجودية يُضرَب بها القلبُ.

والثاني: قطع الموادِّ التي بها حياته وصلاحه عنه، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها.

وعقوبة القلوب أشد العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان.

والتي علىٰ الأبدان أيضًا نوعان: نوعٌ في الدنيا، ونوع في الأخرىٰ.

وشدَّتها ودوامها بحسب مفاسد ما رُتبت عليه في الشدة والخفَّة.

فليس في الدنيا والآخرة شرٌّ أصلًا إلا الذنوب وعقوباتها؛ فالشر اسم لذلك كله، وأصله من شرِّ النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا**»[1]، وسيئات الأعمال من شرور النفس؛ فعاد الشرُّ كلُّه إلىٰ شرِّ النفس، فإنَّ سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والنسائي (١١٦٤)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وصححه الترمذي.

والمقصود: أنَّ عقوبات السيئات تتنوع إلىٰ: عقوباتٍ شرعيةٍ، وعقوباتٍ قدريةٍ، وهي إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما، وعقوباتٍ في دار البرزخ بعد الموت، وعقوباتٍ يوم حشر الأجساد.

فالذنب لا يخلو من عقوبةٍ ألبتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنَّه بمنزلة السكران والمخدَّر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحسَّ بالمؤلم؛ فترتُّبُ العقوبات علىٰ الذنوب كترتُّب الإحراق علىٰ النار، والكسر علىٰ الانكسار، والإغراق علىٰ الماء، وفساد البدن علىٰ السموم، والأمراض علىٰ الأسباب الجالبة لها.

وقد تقارن المضرةُ الذنبَ، وقد تتأخر عنه إمَّا يسيرًا وإمَّا مدةً، كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه.

وكثيرًا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئًا فشيئًا، كما تعمل السموم والأشياء الضارَّة حذوَ القُذَّة بالقذَّة؛ فإنْ تدارك العبدُ بالأدوية والاستفراغ والحِمية وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنبًا واحدًا لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كلَّ يومٍ وكلَّ ساعة! فالله المستعان.

فصل

ص ٢٧٣
استحضار العقوبات زاجر عن فعل المعاصي

فاستحضِرْ بعض العقوبات التي رتَّبها الله سبحانه علىٰ الذنوب، وجوِّزْ وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلىٰ هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها: الختم علىٰ القلوب والأسماع، والغشاوة علىٰ الأبصار، والإقفال علىٰ القلوب، وجعل الأكِنَّة عليها، والرَّين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الربّ، وإنساء الإنسان نفسَه، وترك إرادة الله تطهيرَ القلب، وجعل الصدر ضيّقًا حرجًا كأنما يصَّعَّد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا علىٰ مرضها، وإركاسها ونكسها.

ومنها: التثبيط عن الطاعة، والإقعاد عنها.

ومنها: جعل القلب أصمَّ لا يسمع الحقَّ، أبكمَ لا ينطق به، أعمىٰ لا يراه.

ومنها: الخسف بالقلب، كما يخسف بالمكان وما فيه؛ فيخسف به إلىٰ أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر.

ومنها: مسخ القلب، فيُمسَخ كما تمسخ الصورة.

ومنها: مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته لقلب الزائغ عن الحق.

ومنها: نكسُ القلبِ حتىٰ يرىٰ الباطل حقًّا، والحق باطلًا، والمعروف منكرًا، والمنكرَ معروفًا.

ومنها: حجاب القلب عن الربِّ في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤ - ١٥].

ومنها: المعيشة الضَّنْك في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ في دنياه، وفي البرزخ، ويوم معاده.

ولا تقرُّ العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلٰهها ومعبودها الذي هو حقٌّ، وكلُّ معبود سواه باطل؛ فإنَّ طيبَ النفس وسرورَ القلب وفرحَه ولذَّتَه وابتهاجَه وطمأنينتَه وانشراحَه ونورَه وسعتَه وعافيتَه من الشهوات المحرَّمة والشبهات الباطلة هو النعيم علىٰ الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

وأيُّ لذةٍ ونعيمٍ في الدنيا أطيبُ من برِّ القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الربِّ تعالىٰ ومحبته والعمل علىٰ موافقته! وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟!

وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ خليله بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ - ٨٤]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

والقلب السليم: هو الذي سلم من الشرك والغِلِّ والحقد والحسد والشحِّ والكبر وحبِّ الدنيا والرياسة؛ فسلِمَ من كلِّ آفةٍ تُبعده من الله، وسلِمَ من كلِّ شبهةٍ تُعارِض خبرَه، ومن كلِّ شهوةٍ تعارض أمرَه، وسلِمَ من كل إرادة تزاحم مرادَه، وسلِمَ من كلِّ قاطع يقطع عن الله؛ فهذا القلب السليم في جنَّةٍ معجَّلةٍ في الدنيا، وفي جنةٍ في البرزخ، وفي الجنَّة يوم المعاد.

ولا تتمُّ له سلامته مطلقًا حتىٰ يسلَم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنَّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذكر، وهوىٰ يناقض التجريد والإخلاص، وهذه الخمسة حُجُب عن الله، وتحتَ كل واحدٍ منها أنواع كثيرة تتضمَّن أفرادًا لا تنحصر.

ولذلك اشتدَّت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراطَ المستقيمَ؛ فليس العبدُ أحوجَ منه إلى هذه الدعوة، وليس شيءٌ أنفعَ له منها؛ فإنَّ الصراط المستقيم يتضمَّن علومًا وإراداتٍ وأعمالًا وتُروكًا ظاهرةً وباطنةً تجري عليه كلَّ وقت.

فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثرَ مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه، وهو من الصراط المستقيم وإن عجَزَ عنه، وما يقدر عليه قد تريده نفسه، وقد لا تريده كسلًا وتهاونًا، أو لقيام مانعٍ، وغير ذلك، وما تريده قد يفعله، وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الإخلاص، وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة، وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه، وقد يُصرَف قلبُه عنه.

وهذا كله واقعٌ سارٍ في الخلق، فمستقِلٌّ ومستكثِر.

وليس في طباع العبد الهدايةُ إلى ذلك، بل متى وُكِلَ إلى طباعه حِيل بينه وبين ذلك كله، وهذا هو الإركاس الذي أركسَ الله به المنافقين بذنوبهم؛ فأعادهم إلى طباعهم، وما خُلِقَتْ عليه نفوسُهم من الجهل والظلم.

والربُّ ﷻ علىٰ صراط مستقيم في قضائه وقدره، ونهيه وأمره؛ فيهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم بفضله ورحمته، وجَعْلِه الهدايةَ حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحلّ، وذلك موجَب صراطه المستقيم الذي هو عليه.

فهو علىٰ صراطٍ مستقيم، ونصب لعباده من أمره صراطًا مستقيمًا دعاهم جميعًا إليه حجَّةً منه وعدلًا، وهدىٰ من شاء منهم إلىٰ سلوكه نعمةً منه وفضلًا، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه.

فمن أعظم عقوبات الذنوب: الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.

فصل

ص ٢٨٦ تفاوت عقوبات الذنوب بتفاوت درجاتها ومفاسدها

ولما كانت الذنوب متفاوتةً في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوُتها.

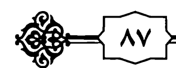
ونحن نذكر فيها بعون الله وتوفيقه فصلًا وجيزًا جامعًا، فنقول:

أصلها نوعان: ترك مأمورٍ، وفعل محظور.

وهما الذنبان اللذان ابتلىٰ الله سبحانه بهما أبوَي الجنِّ والإنس.

وكلاهما ينقسم باعتبار محلِّه إلىٰ ظاهرٍ علىٰ الجوارح، وباطن في القلب.

وباعتبار متعلَّقِه إلىٰ حقٍّ لله، وحقٍّ لخلقه، وإن كان كلُّ حقٍّ لخلقه فهو متضمِّن لحقِّه، لكن سمِّي حقًّا للخلق لأنَّه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم.



ثم هذه الذنوب تنقسم إلىٰ أربعة أقسام: مَلِكيَّة، وشيطانية، وسَبُعيَّة، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

فالذنوب الملِكية: أن يتعاطىٰ ما لا يصلح له من صفات الربوبية، كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلوِّ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل في هذا الشركُ بالربِّ تعالىٰ، وهو نوعان: شركٌ به في أسمائه وصفاته، وجعلُ آلهةٍ أخرىٰ معه، وشركٌ به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخولَ النار، وإن أَحبط العملَ الذي أُشرِكَ فيه مع الله غيرُه.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القولُ علىٰ الله بلا علم في خلقه وأمره؛ فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيتَه ومُلكَه، وجعل له ندًّا، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

فصل

ص ٢٨٨ الذنوب الشيطانية

وأما الشيطانية: فالتشبُّه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغشِّ والغلِّ، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينِها، والنهي عن طاعته وتهجينِها، والابتداع في دينه، والدعوة إلىٰ البدع والضلال.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإنْ كانت مفسدته دونه.

الذنوب السبعية والبهيمية

فصل

وأما السَّبُعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثُّب علىٰ الضعفاء والعاجزين، ويتولَّد منها أنواع أذىٰ النوع الإنساني، والجرأة علىٰ الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشَّرَه والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولَّد الزنا، والسرقة، وأكل أموال اليتامىٰ، والبخل والشحُّ، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلىٰ سائر الأقسام؛ فهو يجرُّهم إليها بالزِّمام، فيدخلون منه إلىٰ الذنوب السبعية، ثم إلىٰ الشيطانية، ثم إلىٰ منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية.

ومن تأمَّل هذا حقَّ التأمُّل تبيَّن له أنَّ الذنوب دِهْلِيزُ[1] الشرك، والكفر، ومنازعة الله ربوبيته.

ص ٢٨٩
الذنوب كبائر وصغائر

فصل

وقد دلّ القرآنُ والسنّةُ وإجماعُ الصحابةِ والتابعينَ بعدهم والأئمَّةِ علىٰ أنَّ من الذنوب كبائرَ وصغائرَ.

قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

(١) الدِّهليز -بكسر الدّال- ما بين الباب والدار، فارسي معرب. الصحاح (٣/ ٨٧٨).

وفي «الصحيح»[١] عنه ﷺ أنه قال: **«الصلواتُ الخمسُ، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ، مكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَت الكبائر»**.

وهذه الأعمال المكفِّرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصِّر عن تكفير الصغائر؛ لضعفِها، وضعفِ الإخلاص فيها، والقيام بحقوقها؛ بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الدَّاء كميَّةً وكيفيةً.

الثانية: أن تقاوم الصغائرَ، ولا ترتقي إلىٰ تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوَىٰ علىٰ تكفير الصغائر، وتبقىٰ فيها قوةٌ تكفِّر بها بعضَ الكبائر.

فتأمَّلْ هذا؛ فإنَّه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي «الصحيحين»[٢] عنه ﷺ أنه قال: **«ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟»** قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: **«الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»**.

وفي «الصحيحين»[٣] عنه ﷺ: **«اجتنبوا السبعَ الموبقات»** قيل: وما هنَّ يا رسولَ الله؟ قال: **«الشركُ بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولِّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات»**.

وفي «الصحيحين»[٤] عنه ﷺ: أنَّه سئل: أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: **«أن تدعو لله ندًّا، وهو خَلَقك»** قيل: ثمَّ أيّ؟ قال: **«أن تقتل ولدك مخافةَ أن يطعَمَ معك»** قيل: ثمَّ أيّ؟ قال: **«أن تُزانيَ بحليلة جارك»**؛ فأنزل الله تعالىٰ تصديقها:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٧)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

واختلف الناس في الكبائر؛ هل لها عدد يحصرها؟

علىٰ قولين.

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها.

والذين لم يحصروها بعدد، منهم من قال: ما اقترن بالنهي عنه وعيدٌ من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة[١].

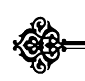
وقيل: كل ما رتب عليه حدٌّ في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم يرتَّب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة[٢].

والذين لم يقسموها إلىٰ كبائر وصغائر[٣] قالوا: الذنوب كلها بالنسبة إلىٰ الجراءة علىٰ الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره كبائر؛ فالنظر إلىٰ من عُصيَ أمرُه وانتُهِكت محارمُه يوجب أن تكون الذنوب كلُّها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٤٤٤).

(٢) انظر: الفتح لابن حجر (١٠/ ٤١٠). (٣) انظر: الفتح لابن حجر (١٠/ ٤٠٩).



فصل

ص ٢٩٥
الكبائر: ما كانت أشدَّ منافاةً لمقصود الخلق والأمر

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال:

إن الله ﷻ أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السماوات والأرض لِيُعرفَ ويوحَّد ويُعبَدَ، ويكون الدين كلّه له، والطاعة كلُّها له، والدعوة له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

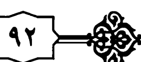
وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

فأخبر سبحانه أنَّ القصد بالخلق والأمر أن يُعرَفَ بأسمائه وصفاته، ويُعبَد وحده لا يُشرَكَ به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فأخبر أنَّه أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل.

ومن أعظم القسط: التوحيدُ، بل هو رأسُ العدل وقِوامُه، وإنَّ الشرك لظلم عظيم؛ فالشرك أظلَمُ الظلمِ، والتوحيد أعدَلُ العدلِ، فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتُها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشدّ موافقةً لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.



فتأمَّلْ هذا الأصلَ حقَّ التأمُّل، واعتبِرْ به تفاصيلَه تَعرِفْ به حكمةَ أحكمِ الحاكمين وأعلمِ العالمين فيما فرضه علىٰ عباده وحرَّمه عليهم؛ وتفاوُتَ مراتبِ الطاعات والمعاصي.

ولمَّا كان الشرك بالله منافيًا بالذات لهذا المقصود كان أكبرَ الكبائر علىٰ الإطلاق، وحرَّم الله الجنَّةَ علىٰ كل مشرك، وأباح دمَه ومالَه وأهلَه لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم، لمَّا تركوا القيام بعبوديته، وأبىٰ اللهُ سبحانه أن يقبل من مشرك عملًا، أو يقبل فيه شفاعةً، أو يستجيب له في الآخرة دعوةً، أو يُقيل له فيها عثرةً؛ فإنَّ المشرك أجهل الجاهلين بالله؛ حيث جعل له من خلقه نِدًّا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غايةُ الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربَّه، وإنما ظلم نفسه.

والشرك شركان:

شرك يتعلَّق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنَّه سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

والشرك الأول نوعان:

أحدهما: **شرك التعطيل**: وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون إذ قال: وما ربُّ العالمين؟

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخرَ، ولم يعطِّل أسماءَه وصفاتِه وربوبيتَه: كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالث ثلاثةً؛ فجعلوا المسيح إلهًا، وأمَّه إلهًا.

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك، وأخفُّ أمرًا؛ فإنَّه يصدر ممن

يعتقد أنَّه لا إله إلا الله، وأنَّه لا يضرُّ وينفع ويعطي ويمنع إلا الله، وأنَّه لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، **ولكن لا يُخلِص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظِّ نفسه تارةً، ولطلب الدنيا تارةً، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارةً؛ فلِلّه من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظّه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، ولِلخَلْق نصيب، وهذا حال أكثر الناس.**

وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حِبَّانَ في «صحيحه»[(١)]: «**الشرك في هذه الأمَّة أخفىٰ من دبيب النمل**» قالوا: وكيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إنِّي أعوذ بك أن أشرِكَ بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**».

فالرياء كله شرك.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] أي: كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرَّد بالإلهية يجب أن يُفرَدَ بالعبودية؛ فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيَّد بالسنَّة.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا[(٢)].

وهذا الشركُ في العبادة يُبطِل ثوابَ العمل، وقد يعاقَب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنَّه يُنزِله منزلةَ من لم يعمَلْه، فيعاقَب علىٰ ترك الأمر؛ فإنَّ الله سبحانه إنما

---

(١) ليس في المطبوع، وأصح ما ورد فيه حديث أبي موسىٰ الأشعري، أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٠٣) برقم (١٩٦٠٦).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٦١٥).

أمر بعبادته خالصة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]؛ فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أُمِرَ به، بل الذي أتىٰ به شيءٌ غير المأمور به، فلا يصحُّ ولا يقبل منه.

ويقول الله تعالىٰ: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرَكَ معي فيه غيري؛ فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء**»[١].

وهذا الشرك ينقسم إلىٰ مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر.

والنوع الأول ينقسم إلىٰ كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفورًا.

ويتبع هذا الشركَ **الشركُ به سبحانه في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات.**

فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

ومن الشرك به سبحانه **الشركُ به في اللفظ**، كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود[٢] عنه ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**». صححه الحاكم وابن حبان.

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئتَ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت؛ فقال: «**أجعَلْتَني لله نِدًّا! قل: ما شاء الله وحدَه**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أحمد (٢/ ١٢٥) برقم (٦٠٧٢)، وأبو داود (٣٢٥١)، وأخرجه أيضًا الترمذي (١٥٣٥)، وصححه ابن حبان (٢١٧٧)، والحاكم (٤/ ٢٣١) برقم (٧٨١٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٣٩، ١٩٦٤، ٢٥٦١، ٣٢٤٧)، وابن ماجه (٢١١٧).

وأما الشرك في الإرادات والنيَّات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه؛ فمن أراد بعمله غيرَ وجه الله، أو نوىٰ شيئًا غيرَ التقرُّبِ إليه وطلبِ الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عبادَه كلَّهم، ولا يقبل من أحدٍ غيرَها، وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهي ملَّة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

فصل

ص ٣١٣
حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق وتشبيه المخلوق به

حقيقة الشرك: هو التشبُّه بالخالق والتشبيه للمخلوق به.

فالمشرك مشبِّه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية؛ فإن من خصائص الإلهية التفرُّدَ بملك الضرِّ والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعلُّقَ الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده؛ فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق.

ومن خصائص الإلهية الكمالُ المطلقُ من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلُّها له وحده، والتعظيمُ والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكُّل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحبّ كلُّ ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرةً أن يكون له وحده، ويُمنَع عقلًا وشرعًا وفطرةً أن يكون لغيره؛ فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبَّه ذلك الغيرَ بمن لا شبيهَ له، ولا مثل له، ولا ندَّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطلُه.

هذا في جانب التشبيه.

وأمّا في جانب التشبُّه به: فمن تعاظمَ وتكبَّر، ودعا الناس إلىٰ إطرائه في المدح، والتعظيم، والخضوع، والرجاء، وتعليق القلب به خوفًا ورجاءً والتجاءً واستعانةً به؛ فقد تشبَّه بالله، ونازعه ربوبيته وإلٰهيّتَه، وهو حقيق بأن يُهينه اللهُ غايةَ الهوان، ويُذِلَّه غاية الذلّ، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفي «الصحيح»[1] عنه ﷺ قال: «**يقول الله ﷻ: العظمةُ إزاري، والكبرياء ردائي؛ فمن نازعني واحدًا منهما عذَّبتُه**».

وإذا كان المصوِّر الذي يصنع الصورة بيده من أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة؛ لتشبُّهه بالله في مجرَّد الصنعة، فما الظنُّ بالتشبُّه بالله في الربوبية والإلهية!

كما قال ﷺ: «**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة المُصوِّرون، يقال لهم: أحْيُوا ما خلقتم**»[2].

وكذلك من تشبَّه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده، كملِك الأملاك، وحاكم الحكَّام، ونحوه، وقد ثبت في «الصحيح»[3] عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ أخنَعَ الأسماءِ عند الله رجل تسمَّىٰ بشاهان شاه: مِلك الملوك، ولا مِلك إلا الله**».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) الجملة الأولىٰ من حديث ابن مسعود، والأخرىٰ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أخرجهما البخاري (٥٩٥٠، ٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨، ٢١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. «أخنع الأسماء» أوضَعُها وأحقرها.

فصل

ص ٣١٨
أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به

إذا تبيَّن هذا؛ فهاهنا أصل عظيم يكشف سرَّ المسألة، وهو أنَّ أعظمَ الذنوب عند الله إساءةُ الظنِّ به؛ فإنَّ المسيء به الظنَّ قد ظنَّ به خلافَ كماله المقدَّس، وظنَّ به ما يناقض أسماءَه وصفاتِه؛ ولهذا توعَّد اللهُ سبحانه الظانِّين به ظنَّ السوء بما لم يتوعَّد به غيرَهم، كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالىٰ لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال تعالىٰ حاكيًا عن خليله إبراهيم ﷺ أنَّه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٧]، أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيرَه؟! وماذا ظننتم به حتىٰ عبدتم معه غيرَه؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتىٰ أحوجكم ذلك إلىٰ عبودية غيره؟!

فما قدر اللهَ حقَّ قدره مَن عبد معه غيرَه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤].

فما قدر اللهَ حقَّ قدره من عبد معه مَن لا يقدر علىٰ خلق أضعفِ حيوانٍ وأصغره، وإنْ سلبه الذبابُ شيئًا مما عليه لم يقدر علىٰ استنقاذه منه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ فما قدر مَن هذا شأنُه

وعظمتُه حقَّ قدره مَن أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه! فما قدر القويَّ العزيزَ حقَّ قدره مَن أشرك معه الضعيف الذليل!

وكذلك لم يقدُرْه حقَّ قدره من هان عليه أمرُه فعصاه، ونهيُه فارتكبه، وحقُّه فضيَّعه، وذِكرُه فأهمله وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثرَ عنده من طلب رضاه، وطاعةُ المخلوق أهمَّ عنده من طاعته، فلِلّٰه الفَضْلةُ من قلبه وقوله وعمله، وسواه المقدَّم في ذلك؛ لأنّه المهمُّ عنده؛ يستخِفُّ بنظر الله إليه واطلاعه عليه، وهو في قبضته، وناصيتُه بيده، ويُعظِّم نظرَ المخلوق إليه واطّلاعَه عليه بكلِّ قلبه وجوارحه، ويستحيي من الناس، ولا يستحيي من الله، ويخشىٰ الناس، ولا يخشىٰ الله، ويعامل الخلقَ بأفضلِ ما يقدر عليه، وإن عاملَ اللهَ عاملَه بأهونِ ما عنده وأحقرِه، وإن قام في خدمة إلٰهه من البشر قام بالجدِّ والاجتهاد وبذلِ النصيحة، وقد فرَّغ له قلبه وجوارحه، وقدَّمه علىٰ كثير من مصالحه، حتىٰ إذا قام في حقِّ ربِّه -إن ساعد القدرُ- قام قيامًا لا يرضىٰ مثلَه مخلوق من مخلوق، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجَه به مخلوق لمثله! فهل قدر اللهَ حقَّ قدره مَن هذا وصفُه!

فهذه إشارة لطيفة إلىٰ السرِّ الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنَّه لا يُغفَر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب، وأنه ليس تحريمُه وقبحُه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل علىٰ الله سبحانه أن يشرع عبادةَ إلهٍ غيرِه، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يُظنُّ بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضىٰ به؟! تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فصل

ص ٣٢٩
الشرك والكبر أكبر الكبائر

فلما كان الشرك أكبرَ شيء منافاةً للأمر الذي خلق الله له الخلق وأمر لأجله بالأمر كان أكبر الكبائر عند الله.

وكذلك الكبر وتوابعه، كما تقدَّم؛ فإنَّ الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتب لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك.

ولذلك حرَّم الله الجنَّة علىٰ أهل الشرك والكبر؛ فلا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر[١].

فصل

القول على الله بلا علم من أكبر الكبائر

ويلي ذلك في كبر المفسدة القولُ علىٰ الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفُه بضدّ ما وصف به نفسَه، ووصَفَه به رسولُه؛ فهو أشدُّ شيءٍ مناقضةً ومنافاةً لكمال من له الخلق والأمر، وقدحٌ في نفس الربوبية وخصائص الربّ.

ولما كانت البدع المضِلَّة جهلًا بصفات الله وتكذيبًا بما أخبَر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله عنادًا وجهلًا كانت من أكبر الكبائر -إن قَصُرت عن الكفر- وكانت أحبَّ إلىٰ إبليس من كبار الذنوب.

كما قال بعض السلف: البدعة أحبُّ إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأنَّ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها[٢].

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٩١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) من كلام سفيان الثوري، أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢٣٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦/ ٤٨٢)، (٩٠٠٩).

ص ٣٣٢
الظلم والعدوان من أكبر الكبائر

فصل

ثم لمَّا كان الظلم والعدوان منافيًا للعدل الذي قامت به السماوات والأرض، وأرسل الله سبحانه رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس به؛ كان من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العظم بحسب مفسدته في نفسه.

وكان قتلُ الإنسان ولدَه الطفلَ الصغيرَ الذي لا ذنب له، وقد جبل الله سبحانه القلوبَ علىٰ رحمته، وعَطَفَها عليه، وخصَّ الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة؛ فقتله خشيةَ أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشدِّه، وكذلك قتلُه أبويه اللَّذَين كانا سبب وجوده، وكذلك قتله ذا رَحِمِه.

وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه، واستحقاقِ مَن قَتلَه السعيَ في إبقائه ونصيحته؛ ولهذا كان أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًّا، أو قتَلَه نبيٌّ، ويليه من قتل إمامًا أو عالمًا يأمر الناس بالقسط، ويدعوهم إلىٰ الله، وينصحهم في دينهم.

وقد جعل الله سبحانه جزاءَ قتل النفس المؤمنة عمدًا الخلودَ في النار، وغضبَ الجبار، ولعنتَه، وإعدادَ العذاب العظيم له، هذا موجَب **قتل المؤمن عمدًا**، ما لم يمنع منه مانع.

وفي «صحيح البخاري»[1] عن جُندَب قال: «**أول ما يُنتِن من الإنسان بطنُه، فمن استطاع منكم ألا يأكلَ إلا طيِّبًا فليفعل، ومن استطاع ألا يحولَ بينه وبين الجنَّة ملءُ كفٍّ من دمٍ أَهْراقَه فليفعل**».

وفي «صحيحه» أيضًا[2] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فُسحةٍ مِن دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا**».

---

(١) برقم (٧١٥٢). (٢) برقم (٦٨٦٢).

وذكر البخاري[١] أيضًا عن ابن عمر قال: «مِن وَرَطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسَه فيها سفكُ الدم الحرام بغير حِلِّه».

وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرَّةٍ حبسَتْها حتىٰ ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النار[٢] والهرَّةُ تخدِشها في وجهها وصدرها؛ فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتىٰ مات بغير جرم؟!

وفي بعض «السنن»[٣] عنه ﷺ: «**لَزوالُ الدنيا أهونُ علىٰ الله مِن قتلِ مؤمنٍ بغير حقّ**».

فصل

ص ٣٤٥
الزنا من أشد المعاصي مفسدةً بعد القتل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقِّي ما يُوقع أعظمَ العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كلٍّ منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمِّه، وفي ذلك خراب العالم كانت تلي مفسدة القتل في الكِبَر؛ ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه، ورسولُه بها في سنته، كما تقدَّم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا[٤].

وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ

(١) برقم (٦٨٦٣).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه النسائي (٣٩٩٠) من حديث بُريدة، وأخرجه ابن ماجه (٢٦١٩) من حديث البراء، وأخرجه النسائي (٣٩٨٧)، والترمذي (١٣٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ورجح البخاري أنه موقوف.
(٤) نقله عنه المؤلف في روضة المحبين (٤٩٧).

ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وعلَّق سبحانه فلاح العبد علىٰ حفظ فرجه منه؛ فلا سبيل له إلىٰ الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧].

وأمر تعالىٰ نَبِيَّهُ ﷺ أن يأمر المؤمنين بغضِّ أبصارهم، وحفظ فروجهم، وأن يُعلِمَهم أنَّه مشاهد لأعمالهم، مطَّلع عليها، يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور.

ولمَّا كان مبدأ ذلك من قِبَل البصر جعل الأمرَ بغضِّه مقدَّمًا علىٰ حفظ الفرج؛ فإنَّ الحوادث مبدؤها من النظر، كما أنَّ معظم النار من مستصغَر الشرر؛ فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينَه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات؛ فينبغي للعبد أن يكون بوَّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها؛ فمنها يدخل عليه العدوُّ، فيجوس خلال الديار، ويتبِّر ما عَلا تتبيرًا!

فصل

ص ٣٤٨
أبواب دخول المعاصي على العبد

وأكثر ما تدخل المعاصي علىٰ العبد من هذه الأبواب الأربعة، فنذكر في كل واحد منها فصلًا يليق به:

فأما اللحظات: فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصلُ حفظ الفرج؛ فمن أطلق بصره أورده موارد الهلَكات.

وقال النبي ﷺ: «**لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ؛ فإنَّما لك الأولىٰ، وليست لك الآخِرة**»(١).

وفي المسند(٢) عنه ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غضَّ بصره عن محاسنِ امرأةٍ لله أورث الله قلبه حلاوةً إلىٰ يوم يلقاه**» هذا معنىٰ الحديث.

وقال: «**غُضُّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم**»(٣).

وقال: «**إيَّاكم والجلوس علىٰ الطرقات!**» قالوا: يا رسول الله، مجالسُنا ما لنا منها بد. قال: «**فإن كنتم لابدَّ فاعلين؛ فأعطوا الطريقَ حقَّه**» قالوا: وما حقُّه؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفُّ الأذىٰ، وردُّ السلام**»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧).

(٢) ليس في المسند، وقد أخرجه الحاكم (٤/ ٣٤٩) برقم (٧٨٧٥)، وصححه، وتعقبه الذهبي؛ فضعفه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣) برقم (٢٢٧٥٧)، وصححه ابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٤/ ٣٩٩)، (٨٠٦٦)، وأعلّه بالانقطاع المنذري والهيثمي. انظر: الترغيب والترهيب (٣/ ٦٤)، ومجمع الزوائد (٤/ ١٤٥).

(٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه البخاري (٢١٢١).

والنظر أصل عامَّة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فإنَّ النظرة تولِّد خطرةً، ثم تولِّد الخطرة فكرةً، ثم تولِّد الفكرة شهوةً، ثم تولِّد الشهوة إرادةً، ثم تقوى فتصير عزيمةً جازمةً، فيقع الفعل ولابدَّ، ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر علىٰ غضِّ البصر أيسرُ من الصبر علىٰ ألم ما بعده[1].

قال الشاعر:

كلُّ الحـوادث مبداها مـن النظر ... ومعظمُ النار من مستصغَر الشررِ

كم نظرةٍ بلغت من قلب صاحبها ... كمبلغ السهم بين القوس والوتَرِ

والعبـد مـا دام ذا طَـرْفٍ يقلِّبـه ... في أعين العِين موقوفٌ على الخطرِ

يسـرُّ مُقلتَـه مـا ضـرَّ مُهجتَـه ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضررِ[2]

ومن آفات النظر: أنّه يورث الحسرات والزفرات والحرقات؛ فيرىٰ العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب أن ترىٰ ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك علىٰ بعضه.

قال الشاعر:

وكنتَ متىٰ أرسـلتَ طرفَك رائدًا ... لقلبك يومًـا أتعبتْـك المناظـرُ

رأيـتَ الـذي لا كلُّـه أنت قـادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ[3]

وهذا البيت يحتاج إلىٰ شرح، ومراده: أنك ترىٰ ما لا تصبر عن شيءٍ منه، ولا

---

(١) انظر نحوه لزياد مولىٰ ابن عياش في ذم الهوىٰ (٦١).

(٢) البيتان الأخيران وردَا في المدهش (٦٩٢).

(٣) البيتان في حماسة أبي تمام دون عزو. انظر: شرح المرزوقي (١٣٢١).

تقدر علىٰ شيء منه، فإنَّ قوله: «لا كلَّه أنت قادر عليه» نفيٌ لقدرته علىٰ الكلِّ، التي لا تنتفي إلا بنفي القدرة عن كلٍّ واحد.

وكم ممن أرسل لحظاتِه، فما أقلعَتْ إلا وهو يتشحَّط بينهن قتيلًا، كما قيل:

يا ناظرًا ما أقلعتْ لحظاتُه حتّى تشحَّط بينهن قتيلُ(١)

ولي من أبيات:

مَلَّ السلامةَ فاغتدت لحظاتُه وقفًا على طللٍ يُظَنُّ جميلا

ما زال يُتبِعُ إثرَه لحظاتِه حتى تشحَّط بينهن قتيلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلىٰ المنظور إليه حتىٰ يتبوأ مكانًا من قلب الناظر. ولي من قصيدة:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا أنتَ القتيلُ بما تَرمي فلا تُصِبِ

وباعثَ الطرْفِ يرتاد الشفاءَ له احبِس رسولك لا يأتيك بالعَطَبِ

وأعجب من ذلك: أنَّ النظرة تجرح القلبَ؛ فيُتبِعُها جرحًا علىٰ جرح، ثم لا يمنعه ألمُ الجراحة من استدعاء تكرارها. ولي أيضًا في هذا المعنىٰ:

ما زلتَ تُتبعُ نظرةً في نظرةٍ في إثر كلِّ مليحةٍ ومليحِ

وتظن ذاك دواءَ جرحك وَهْو في التْـ ـتَحقيق تجريح على تجريحِ

فذبحتَ طرفَك باللِّحاظِ وبالبُكا فالقلبُ منك ذبيحٌ أيُّ ذبيحِ

وقد قيل: حبسُ اللَّحَظاتِ أيسرُ من دوام الحسَرات.

---

(١) البيت لأبي نواس في ديوانه (٢٥٥).

ص ٣٥٣
الخطرات هي مبدأ الخير والشر

فصل

وأما الخطرات: فشأنها أصعب؛ فإنَّها مبدأ الخير والشرّ، ومنها تتولَّد الإرادات والهمم والعزائم؛ فمن راعى خطراتِه ملَكَ زمامَ نفسه وقهر هواه، ومن غلبَتْه خطراتُه فهواه ونفسه له أغلَب، ومن استهان بالخطرات قادته قسرًا إلى الهلكات.

ولا تزال الخطرات تتردَّد علىٰ القلب حتىٰ تصير مُنًىٰ باطلة ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وأخسُّ الناس همَّةً وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلَّىٰ بها، وهي -لعمر الله- رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطَّالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزَورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال.

ثمَّ الخطراتُ بعدُ أقسامٌ تدور علىٰ أربعة أصول:

خطرات يستجلِب بها منافعَ دنياه.

وخطرات يستدفع بها مضارَّ دنياه.

وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته.

وخطرات يستدفع بها مضارَّ آخرته.

فَلْيحصُرْ خطراتِه وأفكارَه وهمومَه في هذه الأقسام الأربعة؛ فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لِتزاحُمِ متعلّقاتها قدَّم الأهمَّ الذي يخشىٰ فوته، وأخَّر الذي ليس بأهمَّ ولا يخاف فوته.

وأعلىٰ الفِكَر وأجلِّها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة، **فما كان لله أنواع**:

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة، وتعقُّلها، وفهم مراده منها؛ ولذلك أنزلها الله تعالىٰ لا لمجرَّد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة.

قال بعض السلف: أُنزِل القرآنُ لِيُعمَل به؛ فاتخذوا تلاوته عملًا[1].

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة، والاعتبارُ بها، والاستدلال بها علىٰ أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبرِّه وجوده، وقد حضَّ الله سبحانه عباده علىٰ التفكر في آياته وتدبُّرها وتعقُّلها، وذمَّ الغافلَ عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه علىٰ خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفةَ الله، ومحبّتَه، وخوفَه، ورجاءَه، ودوامُ الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل.

وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي بابٌ لكلِّ خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمَّارة، ومتىٰ كُسِرَتْ عاشت النفس المطمئنَّة وانتعشت، وصار الحكم لها، فحيِيَ القلبُ ودارت كلمتُه في مملكته، وبثَّ أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهمِّ كلِّه عليه؛ فالعارف ابنُ وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلُّها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيَّعه لم يستدركه أبدًا.

---

(١) من كلام الحسن البصري، ربيع الأبرار (٣/ ٢٢٣).

قال الشافعي رحمه الله: صحبتُ الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين: أحدهما قولهم: الوقت سيف، فإنْ قطعتَه، وإلَّا قطعك. وذكر الكلمة الأخرى[١].

واعلم أنَّ ورود الخاطر لا يضرُّ، وإنّما يضرُّ استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمارّ علىٰ الطريق، فإنْ لم تستدعِه وتركتَه مرَّ وانصرف عنك، وإن استدعيتَه سَحَرك بحديثه وخَدْعه وغروره، وهو أخفُّ شيء علىٰ النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء علىٰ القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تُنقَش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب، وغرور، وخدع، وأمانٍ باطلة، وسراب لا حقيقة له؟! فأيُّ حكمة وعلم وهدًىٰ ينتقش مع هذه النقوش! وإذا أراد أن ينتقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محلٍّ مشغولٍ بكتابة ما لا منفعة فيه، فإنْ لم يُفرِّغ القلبَ من الخواطر الرديَّة لم يستقرَّ فيه الخواطر النافعة؛ فإنّها لا تستقرُّ إلا في محل فارغ.

والكمال في امتلاء القلب والسرِّ من الخواطر والإرادات والفِكَر في تحصيل مراضي الربِّ تعالىٰ من العبد ومن الناس، والفكر في طرُق ذلك والتوصُّل إليه. فأكمل الناس أكثرهم خواطرَ وفِكَرًا وإراداتٍ لذلك، كما أنَّ أنقصَ الناس أكثرُهم خواطر وفِكَرًا وإراداتٍ لحظوظه وهواه أين كانت. والله المستعان.

وهذا عمر بن الخطاب كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الربِّ تعالىٰ، فربَّما استعملها في صلاته، فكان يجهِّز جيشَه وهو في صلاته[٢]؛ فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة.

---

(١) انظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٨٨) برقم (٧٩٥١)، وصححه ابن حجر في الفتح (٣/ ٩٠).

وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة، وهو باب عزيز شريف لا يعرفه إلا صادق الطلب، متضلِّع من العلم، عالي الهمة؛ بحيث يدخل في عبادةٍ يظفر فيها بعبادات شتىٰ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فصل

ص ٣٦٣
حفظ اللفظات بعدم الكلام فيما لا نفع فيه

وأما اللَّفَظات: فحفظها بألا يُخرِجَ لفظةً ضائعةً، بل لا يتكلَّم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر؛ هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإنْ لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر؛ هل يفوته بها كلمةٌ هي أربح منها، فلا يضيِّعها بهذه.

وإذا أردت أن تستدلَّ علىٰ ما في القلب، فاستدِلَّ عليه بحركة اللسان؛ فإنّه يُطلِعُ ما في القلب، شاء صاحبه أم أبىٰ.

قال يحيىٰ بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر الرجل حين يتكلَّم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه؛ حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغترافُ لسانه[1].

وقد سأل معاذ النبيَّ ﷺ عن العمل الذي يُدخله الجنَّة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بمِلاك ذلك؟**» قال: بلىٰ يا رسول الله؛ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «**كُفَّ عليك هذا**» فقال: وإنّا لمؤاخَذون بما نتكلّم به؟ فقال: «**ثَكِلَتْك أمُّك يا معاذ! وهل يَكُبُّ الناسَ في النار علىٰ وجوههم**

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٦٧).

-أو: **علىٰ مناخرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم؟**»[١]. قال الترمذي: حديث صحيح.

ومن العجب أنَّ الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرَّم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجلَ يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلَّم بالكلمات من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يزِلُّ بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب!

وكم ترىٰ من رجلٍ متورِّع عن الفواحش والظلم، ولسانه يَفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول!

وفي «الصحيحين»[٢] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إنَّ العبد لَيتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم**».

وعند مسلم: «**إنَّ العبد لَيتكلَّم بالكلمة، ما يتبيَّن ما فيها، يهوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب**».

وعند الترمذي[٣] من حديث بلال بن الحارث المُزَني عن النبي ﷺ: «**إنَّ أحدكم ليَتكلَّم بالكلمة من رضوان الله، ما يظنُّ أن تبلغَ ما بلغتْ؛ فيكتب الله له بها**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وضعفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ١٣٥).

(٢) البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨)، وهذا لفظ البخاري.

(٣) برقم (٢٣١٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه وابن ماجه (٣٩٦٩)، وابن حبان (٢٨٠، ٢٨٧)، والحاكم (١/ ١٠٦-١٠٧) برقم (١٣٦-١٤٠).

رضوانَه إلىٰ يوم يلقاه، وإنَّ أحدكم لَيتكلَّم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغَ ما بلغت؛ فيكتب الله له بها سخطه إلىٰ يوم يلقاه».

فكان علقمة يقول: كم من كلام قد مَنَعنيه حديثُ بلال بن الحارث!

وأيسرُ حركات الجوارح حركةُ اللسان، وهي أضرُّها علىٰ العبد.

واختلف السلف والخلف؛ هل يُكتَبُ جميع ما يلفظ به العبد، أو الخير والشرُّ فقط؟ علىٰ قولين، أظهرهما الأول[1].

فصل

ص ٣٧٥ حفظ الخطوات بعدم المشي إلا فيما يرجو ثوابه

وأما الخطوات: فحفظها بألا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خُطاه مزيدُ ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كلِّ مباح يخطو إليه قربةً ينويها لله؛ فتقع خطاه قربةً.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرِّجْل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٢٤)، ومجموع الفتاوىٰ (٧/ ٤٩).

ص ٣٧٦
تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج

فصل

وهذا كلُّه ذكرناه مقدِّمةً بين يدي تحريم الفواحش، ووجوب حفظ الفرج.

وقد قال النبي ﷺ: «**أكثرُ ما يُدخِل الناسَ النارَ: الفم والفرج**»[١].

وفي «الصحيحين»[٢] عنه ﷺ: «**لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدىٰ ثلاث: الثيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**».

وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتلِ النفس نظيرُ الآية التي في الفرقان، ونظيرُ حديث ابن مسعود.

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، ثم بالذي يليه؛ فالزنا أكثر وقوعًا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعًا من الردَّة، وأيضًا فإنَّه انتقال من الأكبر إلىٰ ما هو أكبر منه.

ومفسدة الزنا مناقِضة لصلاح العالَم؛ فإنَّ المرأة إذا زنت أدخلت العار علىٰ أهلها وزوجها وأقاربها، ونكَّست رؤوسَهم بين الناس، وإن حملتْ من الزنا، فإنْ قتلَتْ ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن حمَّلته الزوجَ أدخلَتْ علىٰ أهله وأهلها أجنبيًّا ليس منهم فورِثَهم وليس منهم، ورآهم، وخلا بهم، وانتسب إليهم، وليس منهم، إلىٰ غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنا الرجل فإنَّه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضَها للتلف والفساد.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وصححه ابن حبان (٤٧٦)، والحاكم (٤/ ٣٦٠) برقم (٧٩١٩).

(٢) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عَمَرت القبورَ في البرزخ، والنار في الآخرة! فكم في الزنا من استحلال محرَّمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويَقْصُر العمرَ، ويكسو صاحبه سوادَ الوجه وثوبَ المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنّه يشتِّت القلب، ويُمرِضه إن لم يُمِتْه، ويجلب الهمَّ والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملَك، ويقرِّب منه الشيطان.

فليس بعد مفسدة القتل أعظمُ من مفسدته، ولهذا شُرع فيه القتل علىٰ أشنع الوجوه وأفحشِها وأصعبِها.

ولو بلغ العبدَ أنَّ امرأته أو حُرمته قُتِلتْ كان أسهلَ عليه من أن يبلغه أنَّها زنت.

وقال سعد بن عبادةَ: لو رأيتُ رجلًا مع امرأتي لضربتُه بالسيف غيرَ مُصْفَح[١]؛ فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «**تعجبون من غيرة سعد! واللهِ لأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ منّي؛ ومن أجْلِ غَيرة الله حرَّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن**». متفق عليه[٢].

وخصَّ سبحانه حدَّ الزنا من بين الحدود بثلاث خصائص:

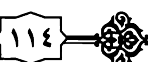
أحدها: القتل فيه أشنعَ القِتلات، وحيث خفَّفه فجمع فيه بين العقوبة علىٰ البدن بالجلد، وعلىٰ القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهىٰ عباده أن تأخذهم بالزُّناة رأفةٌ في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحدِّ عليهم.

---

(١) من: أصفحه بالسيف؛ إذا ضربه بعُرْضه دون حدِّه. النهاية (٣/ ٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.



الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدُّهما بمشهد من المؤمنين؛ فلا يكون خلوةً حيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغُ في مصلحة الحدِّ، وحكمة الزجر.

وحدُّ الزاني المحصن مشتقٌّ من عقوبة الله سبحانه لقومِ لوطٍ بالقذف بالحجارة؛ وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كلٍّ منهما فسادٌ يناقض حكمة الله في خلقه وأمره؛ فإنَّ في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأنْ يُقتل المفعولُ به خير له من أن يُؤتىٰ؛ فإنَّه يَفسُد فسادًا لا يرجىٰ له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيرُه كلُّه، وتمَصُّ الأرض ماوِيَّة الحياء من وجهه، فلا يستحيي بعد ذلك لا من الله، ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السمُّ في البدن.

وقد اختلف الناس: هل يدخل الجنَّةَ مفعول به؟ علىٰ قولين، سمعتُ شيخ الإسلام يحكيهما.

والتحقيق في المسألة أن يقال: إن تاب المبتلىٰ بهذا البلاء وأناب، ورُزق توبة نصوحًا وعملًا صالحًا، وكان في كبره خيرًا منه في صغره، وبدَّل سيئاتِه بحسنات، وغسل عارَ ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغضَّ بصره، وحفظ فرجه من المحرمات، وصدَق الله في معاملته فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنَّة؛ فإنّ الله يغفر الذنوب جميعًا، وإذا كانت التوبة تمحو كلَّ ذنبٍ، حتىٰ الشركَ بالله، وقتلَ أنبيائه وأوليائه، والسحر، والكفر، وغيرَ ذلك، فلا تقصُر عن محو هذا الذنب[1].

وأمَّا مفعول به كان في كبره شرًّا مما كان في صغره، لم يوفَّق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدرك ما فات، ولا أحيا ما أمات، ولا بدَّل السيئات بالحسنات؛

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٤٠٨).

فهذا بعيد أن يوفَّق عند الممات لخاتمةٍ يدخل بها الجنَّة عقوبةً له علىٰ عمله؛ فإنَّ الله سبحانه يعاقب علىٰ السيئة بسيئةٍ أخرىٰ؛ فتتضاعف عقوبة السيئات بعضِها ببعض، كما يثيب علىٰ الحسنة بحسنة أخرىٰ.

وإذا نظرت إلىٰ كثير من المحتضَرين وجدتهم يُحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبةً لهم علىٰ أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمَّد عبد الحقِّ بن عبد الرحمن الإشبيلي رحمه الله[1]: «واعلم أنَّ لسوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- أسبابًا، ولها طرق وأبواب، أعظمها الإكباب علىٰ الدنيا، والإعراض عن الأخرىٰ، والإقدام والجرأة علىٰ معاصي الله عز وجل، وربما غلب علىٰ الإنسان ضربٌ من الخطيئة ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام؛ فملكَ قلبَه، وسبق عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حُجُبَه، فلم تنفع فيه تذكرةٌ، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءَه الموتُ علىٰ ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبيَّن له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرَّر عليه الداعي وأعاد!».

قال: «ويُروىٰ أنَّ بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول: قل (لا إله إلا الله) فقال: الناصر مولاي! فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلمَّا أفاق قال: الناصر مولاي. وكان هذا دأبه، كلمَّا قيل له: قل (لا إله إلا الله) قال: الناصر مولاي. ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنَّما يعرفك بسيفك، والقتل القتل. ثم مات».

---

(١) في كتاب العاقبة (١٧٨ - ١٨٠).

قال عبد الحق: «وقيل لآخر ممن أعرفه: قل (لا إله إلا الله) فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا».

وقال: «وفيما أذن لي أبو طاهر السِّلَفي أن أحدِّث به عنه: أنَّ رجلًا نزل به الموت، فقيل له: قل (لا إله إلا الله) فجعل يقول بالفارسية: دَهْ، يازدَهْ. تفسيره: عشرة بإحدىٰ عشرة.

وقيل لآخر: قل (لا إله إلا الله) فجعل يقول: أين الطريق إلىٰ حمَّام مِنجاب؟».

قال: «وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلًا كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابُها يُشبه بابَ هذا الحمَّام، فمرَّت به جاريةٌ لها منظر فقالت: أين الطريق إلىٰ حمام مِنجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب. فدخلت الدار، ودخل وراءها، فلمَّا رأت نفسَها في داره، وعلمت أنَّه قد خدعها، أظهرت له البِشر والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقرُّ به عيوننا. فقال لها: الساعة آتيكِ بكلِّ ما تريدين وتشتهين. وخرج وتركها في الدار، ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم تَخُنه في شيء؛ فهام الرجل، وأكثر الذكرَ لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقَّة ويقول:

يـا رُبَّ قائلـةٍ يومًـا وقـد تعبـت ... كيف الطريق إلى حمَّام مِنجاب

فبينا هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجاريةٍ أجابته من طاق:

قَرْنـانِ هلَّا جعلـتَ إذ ظفرتَ بها ... حِرزًا على الدار أو قُفلًا على الباب[1]

فازداد هَيَمانه، واشتدَّ هَيَجانه، ولم يزل علىٰ ذلك حتىٰ كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا».

---

(١) القَرنان: الديوث.

قال: «ويروىٰ أن رجلًا عَلِق شخصًا، فاشتدَّ كلفُه به، وتمكَّن حبُّه من قلبه، حتَّىٰ وقع لِما به، ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشخصُ عليه، واشتدَّ نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما، حتَّىٰ وعده أن يعوده، فأُخبِرَ بذلك البائسُ، ففرح واشتدَّ سرورُه، وانجلىٰ غمُّه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضربه له؛ فبينا هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما فقال: إنَّه وصل معي إلىٰ بعض الطريق ورجع، فرغبت إليه وكلَّمته، فقال: إنَّه ذكرني، وبرَّح بي، ولا أدخل مداخل الرِّيَب، ولا أُعرِّضُ نفسي لمواقِع التُّهَم. فعاودتُه، فأبىٰ وانصرف؛ فلمَّا سمع البائسُ أُسْقِط في يده، وعاد إلىٰ أشدَّ مما كان به، وبدَتْ عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

أسلَمُ يا راحةَ العليلِ ويا شِفا المدنِف النحيلِ
رضاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليلِ

فقلت له: يا فلان، اتَّقِ الله، قال: قد كان. فقمتُ عنه، فما جاوزتُ باب داره، حتىٰ سمعتُ ضجَّةَ الموت.

فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة»[1].

«ولقد بكىٰ سفيان الثوري ليلةً إلىٰ الصباح، فلما أصبح قيل له: كلُّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تِبْنةً من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنَّما أبكي من خوف الخاتمة»[2].

وهذا من أعظم الفقه؛ أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحُول بينه وبين الخاتمة بالحسنىٰ.

---

(١) العاقبة (١٨٠). (٢) العاقبة (١٧٥).

وقد ذكر الإمام أحمد[1] عن أبي الدرداء: أنَّه لما احتُضِر جعل يُغمىٰ عليه، ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فمِن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة بالحسنىٰ.

قال[2]: «واعلم أنَّ سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصَلَح باطنُه، ما سُمع بهذا ولا عُلم به، ولله الحمد، وإنَّما تكون لمن له فساد في العقيدة، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربَّما غَلَب ذلك عليه، حتى ينزل به الموتُ قبل التوبة، فيأخذَه قبل إصلاح الطوِيَّة ويُصطلَم[3] قبل الإنابة؛ فيظفَر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله».

قال: «ويروىٰ أنَّه كان بمصرَ رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بَهاءُ الطاعة وأنوار العبادة؛ فرقي يومًا المنارةَ علىٰ عادته للأذان، وكان تحت المنارة دارٌ لنصراني، فاطَّلع فيها، فرأىٰ ابنة صاحب الدار، فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدكِ. قالت: لماذا؟ قال: قد سَبَيتِ لُبِّي، وأخذتِ بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلىٰ رِيبة أبدًا. قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبي لا يُزوِّجني منك. قال لها:

---

(١) في الزهد، وليس في مطبوعته، ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٧)، والبيهقي في الشعب (١٥١٨٤).

(٢) يعني: عبد الحق الإشبيلي في كتاب العاقبة (١٨١).

(٣) أي: يهلك.



أتنصَّر. قالت: إن فعلتَ أفعَلْ. فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلمَّا كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلىٰ سطح كان في الدار، فسقط منه، فمات. فلم يظفر بها، وفاته دينُه!»[1].

فصل

ص ٣٩٢
عقوبة اللواط من أعظم العقوبات

ولما كانت مفسدةُ اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات.

وقد اختلف الناس؛ هل هو أغلظ عقوبةً من الزنا، أو الزنا أغلظ عقوبةً منه، أو عقوبتهما سواء؟ علىٰ ثلاثة أقوال[2]:

* فذهب أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وجابر بن زيد، وعبيد الله بن عبد الله بن معمر، والزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك، وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد في أصحِّ الروايتين عنه[3]، والشافعي في أحد قوليه: إلىٰ أنَّ عقوبته أغلظُ من عقوبة الزنا، وعقوبته القتل علىٰ كلِّ حالٍ محصنًا كان أو غير محصن.

* وذهب عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والأوزاعي، والشافعي في ظاهر مذهبه، والإمام أحمد في الرواية الثانية عنه، وأبو يوسف ومحمد: إلىٰ أنَّ عقوبته وعقوبة الزاني سواء.

---

(١) العاقبة (١٨١).

(٢) انظر: المحلىٰ (١١/ ٣٨٠ - ٣٨٦)، والمغني (١٢/ ٣٤٨ - ٣٥٠).

(٣) انظر: مسائل إسحاق الكوسج (٧/ ٣٤٧١).

وذهب الحكم وأبو حنيفة: إلىٰ أنَّ عقوبته دون عقوبة الزاني، وهي التعزير.

قال أصحاب القول الأول، وهم جمهور الأمة، وحكاه غير واحد إجماعًا للصحابة: ليس في المعاصي مفسدةٌ أعظمَ من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل، كما سنبيّنه إن شاء الله.

قالوا: ولم يبتلِ الله تعالىٰ بهذه الكبيرة قبل قوم لوطٍ أحدًا من العالمين، وعاقبهم عقوبةً لم يعاقب بها أمةً غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات من الإهلاك وقلبِ ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمِهم بالحجارة من السماء؛ فنكَّلَ بهم نكالًا لم ينكِّلْه بأمَّةٍ سواهم؛ وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عُمِلت عليها، وتهرب الملائكة إلىٰ أقطار السماوات والأرض إذا شاهدوها خشيةَ نزول العذاب علىٰ أهلها فيصيبهم معهم، وتعجُّ الأرض إلىٰ ربِّها ﷻ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها.

وقتل المفعول به خير له من وطئه؛ فإنَّه إذا وطئه الرجل قتله قتلًا لا ترجىٰ الحياة معه، بخلاف قتله؛ فإنَّه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به في آخرته.

قالوا: والدليل علىٰ هذا: أن الله سبحانه جعل حدَّ القاتل إلىٰ خِيَرة الوليّ، إن شاء قتل، وإن شاء عفا، وحتَّم قتل اللوطي حدًّا، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، ودلَّت عليه سنَّة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين.

وقد ثبت عن خالد بن الوليد: أنَّه وجد في بعض ضواحي العرب رجلًا يُنكَح كما تُنكَح المرأة، فكتب إلىٰ أبي بكر الصديق، فاستشار أبو بكر الصحابة ﭫ فكان عليُّ بن أبي طالب أشدَّهم قولًا فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمَّةٌ من الأمم واحدة،

وقد علمتم ما فعل الله بها، أرىٰ أن يُحرَّق بالنار؛ فكتب أبو بكر إلىٰ خالد فحرَّقه[١].

وقال عبد الله بن عباس: يُنظر أعلىٰ بناء في القرية، فيُرمىٰ اللوطي منه مُنكَّسًا، ثم يُتبع بالحجارة[٢].

وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحدَّ من عقوبة الله للُّوطية قومِ لوط.

وابن عباس هو الذي روىٰ عن النبي ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**». رواه أهل السنن، وصحَّحه ابن حبان وغيره[٣]، واحتجَّ الإمام أحمد بهذا الحديث[٤]، وإسناده علىٰ شرط البخاري.

قالوا: وثبت عنه أنه قال: «**لعن الله مَن عمِلَ عمَلَ قومِ لوطٍ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمِلَ عمَلَ قوم لوط**»[٥].

ولم تجئ عنه ﷺ لعنةُ الزاني في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعنة مرة واحدة، وكرَّر لعن اللوطية فأكَّده ثلاث مرات.

وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ علىٰ قتله، لم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله؛ فظنَّ بعض الناس أنَّ ذلك اختلاف منهم في قتله؛ فحكاها مسألةَ نزاعٍ بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٤٥)، وضعفه البيهقي في السنن (٨/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٨٣٢٨)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٣٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٣٠٠)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٩٥).

(٤) كما في «مسائل أحمد وإسحاق» برواية الكوسج (٢/ ٣٣٠).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩، ٣١٧) برقم (٢٨١٦، ٢٩١٣، ٢٩١٥)، وصححه ابن حبان (٤٤١٧)، والحاكم (٤/ ٣٩٦) برقم (٨٠٥٢).

قالوا: ومن تأمَّل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] تبيَّن له تفاوتُ ما بينهما؛ فإنَّه سبحانه نكَّر الفاحشة في الزنا، أي: هو فاحشة من الفواحش، وعرَّفها في اللواط، وذلك يفيد أنَّه جامعٌ لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيدٌ الرجل، ونِعْمَ الرجلُ زيد؛ أي: أتأتون الخصلة التي استقرَّ فحشُها عند كلِّ أحدٍ! فهي لظهور فحشها وكماله غنيَّة عن ذكرها؛ بحيث لا ينصرف الاسم إلىٰ غيرها.

فصل

ص ٤١٣
العلاج لداء اللواط

فإن قيل: وهل مع ذلك كله من دواءٍ لهذا الداء العُضال ورقيةٍ لهذا السحر القتَّال؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال؟ وهل من طريقٍ قاصدٍ إلىٰ التوفيق؟ وهل يمكِن السكرانَ بخمرة الهوىٰ أن يفيق؟ وهل يملك العاشق قلبَه، والعشقُ قد وصل إلىٰ سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سوء دائه؟

إن لامه لائم التذَّ بملامه ذِكرًا لمحبوبه، وإن عذله عاذل أغراه عَذلُه، وسار به في طريق مطلوبه، ينادي عليه شاهدُ حاله، بل لسانُ قالِه:

وقَفَ الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... متأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ
وأهنتِني فأهنتُ نفسي جاهدًا ... ما مَن يهون عليكِ ممن يُكرَمُ
أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحِبُّهم ... إذ كان حظّي منكِ حظّي منهمُ

أجـد الملامـةَ في هـواكِ لذيـذةً ... حبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْني اللُّـوَّمُ[١]

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طُلِب له الدواء.

قيل: نعم، الجواب من رأسٍ: «**وما أنزل اللهُ سبحانه من داءٍ إلا أنزل له دواءً؛ علِمَه مَن علمه، وجهِلَه مَن جهله**»[٢].

والكلام في دواء هذا الداء من طريقين:

أحدهما: حَسْم مادَّته قبل حصولها.

والثاني: قلعها بعد نزولها.

وكلاهما يسير علىٰ من يسَّره الله عليه، ومتعذِّر علىٰ من لم يُعِنْه؛ فإنَّ أَزِمَّة الأمور بيديه.

فأمَّا الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران:

أحدهما: **غضُّ البصر**، كما تقدَّم؛ فإنَّ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، ومَن أطلق لحظاتِه دامت حسراتُه.

وفي غضِّ البصر عدَّةُ منافع، وهو بعض أجزاء هذا الدواء النافع.

أحدها: أنَّه امتثالٌ لأمر الله الذي هو غايةُ سعادة العبد في معاشه ومعاده؛ فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربِّه تبارك وتعالى، وما سَعِدَ من سَعِدَ في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي مَن شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

---

(١) الأبيات لأبي الشيص الخزاعي في ديوانه (١٥١).

(٢) تقدّم في أول الكتاب.

الثانية: أنه يمتنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعلَّ فيه هلاكَه إلىٰ قلبه.

الثالثة: أنَّه يورث القلب أنسًا بالله وجمعيَّةً علىٰ الله؛ فإنَّ إطلاق البصر يفرِّق القلب ويشتِّته ويُبعده من الله، وليس علىٰ العبد شيء أضرَّ من إطلاق البصر؛ فإنَّه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوِّي القلبَ ويُفرحه، كما أنَّ إطلاق البصر يُضْعِفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يُكسب القلب نورًا، كما أنَّ إطلاقه يكسبه ظلمة.

ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغضِّ البصر؛ فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال إثر ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

السادسة: أنَّه يُفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاقُ البصر يشتِّته عن ذلك، ويحول بينه وبينه؛ فينفرط عليه أموره، ويقع في اتِّباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

فهذه إشارة إلىٰ بعض فوائد غض البصر تُطلعك علىٰ ما وراءها.

ص ٤٢٢
من طرق علاج الداء
اشتغال القلب بما يصده عن ذلك

فصل

الثاني: اشتغال القلب بما يصدُّه عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إمَّا خوفٌ مقلِق، أو حبٌّ مزعِج؛ فمتىٰ خلا القلب من خوفِ ما فواتُه أضرُّ عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوفِ ما حصولُه أضرُّ عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبةِ ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، وفواتُه أضرُّ عليه من فوات هذا المحبوب - لم يجد بدًّا من عشق الصور.

وشرح هذا: أنَّ النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوبٍ أعلىٰ منه، أو خشيةَ مكروهٍ حصولُه أضرُّ عليها من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلىٰ أمرين إن فُقِدا أو أحدُهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرِّق بها بين درجات المحبوب والمكروه؛ فيؤثر أعلىٰ المحبوبَين علىٰ أدناهما، ويحتمل أدنىٰ المكروهَين ليخلُصَ من أعلاهما، وهذا خاصَّة العقل، ولا يعدُّ عاقلًا من كان بضدِّ ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالًا منه.

الثاني: قوة عزمٍ وصبر يتمكَّن بها من هذا الفعل والترك؛ فكثيرًا ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبىٰ له ضعفُ نفسه وهمته وعزيمته علىٰ إيثار الأنفع، من جشعه وحرصه ووَضاعةِ نفسه وخسَّةِ همته، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه، ولا ينتفع به غيره.

ص ٤٢٤ لا يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة؛ فلا يمكن أن يجتمع في القلب حبُّ المحبوب الأعلىٰ وعشق الصور أبدًا، بل هما ضدَّان لا يتلاقيان، بل لابدَّ أن يُخرج أحدهما صاحبه، فمن كانت قوةُ حبِّه كلُّها للمحبوب الأعلىٰ، الذي محبةُ ما سواه باطلةٌ، وعذابٌ علىٰ صاحبها؛ صَرَفه ذلك عن محبة ما سواه، وإنْ أحبَّه لم يحبَّه إلا لأجله، ولكونه وسيلةً له إلىٰ محبته، أو قاطعًا له عمَّا يضادُّ محبته وينقضها، والمحبة الصادقة تقتضي توحيدَ المحبوب، وألا يشركَ بينه وبين غيره في محبته.

فمحبة الصور تُفوِّت محبةَ ما هو أنفع للعبد منها، بل تُفوِّت محبةَ ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحدَه؛ فليختر إحدىٰ المحبَّتَين، فإنهما لا تجتمعان في القلب، ولا ترتفعان منه، بل مَن أعرض عن محبة الله وذكرِه والشوقِ إلىٰ لقائه ابتلاه بمحبة غيره، فيعذِّبه بها في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة؛ فإمَّا أن يعذِّبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصُّلبان، أو بمحبة النيران، أو محبة المُرْدان، أو محبة النسوان، أو محبة الأثمان، أو محبة العُشراء والخلَّان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان؛ فالإنسان عبدُ محبوبِه كائنًا ما كان! كما قيل:

أنت القتيل بكلِّ من أحببتَه ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي[1]

فمن لم يكن إلهُه مالكَه ومولاه كان إلهه هواه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(١) لابن الفارض في ديوانه (١٥١).

فصل

ص ٤٢٦
مراتب الحب

وخاصية **التعبُّد**: الحبُّ مع الخضوع والذلِّ للمحبوب؛ فمن أحبَّ شيئًا وخضع له فقد تعبَّد قلبه له، بل التعبُّد آخر مراتب الحبِّ، ويقال له: التتيُّم أيضًا.

فإنَّ أول مراتبه **العَلاقة**، وسميت «عَلاقة» لتعلُّق القلب بالمحبوب، قال:

وعُلِّقْتُ ليلى وَهْيَ ذات تمائم ... ولم يبدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ(١)

وقال آخر:

أعَلاقةً أمَّ الوُلَيِّدِ بعدما ... أفنانُ رأسكِ كالثَّغام المُخْلِسِ(٢)

ثم بعدها **الصَّبابة**، وسمِّيت بذلك لانصباب القلب إلىٰ المحبوب، قال:

تشكَّى المحبُّون الصبابةَ ليتني ... تحملتُ ما يَلْقَون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذةُ الحبّ كلُّها ... فلم يلقَها قبلي محبٌّ ولا بعدي(٣)

ثم **الغرام**، وهو لزوم الحبِّ للقلب لزومًا لا ينفكُّ عنه، ومنه سمِّي الغريم غريمًا لملازمته صاحبَه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، وقد أُولِع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحبِّ، وقلَّ أن تجده في أشعار العرب.

ثم **العشق**، وهو إفراط المحبة؛ ولهذا لا يُوصَف به الربُّ تعالىٰ، ولا يطلق في حقّه.

---

(١) لمجنون ليلىٰ في الأغاني (٢/ ٣١) وغيره. انظر: ديوانه (٦٨١).

(٢) هو للمرَّار بن سعيد الفَقْعَسي. انظر: خزانة الأدب (١١/ ٢٣٢). الثغام: نبات أبيض الثمر والزهر يُشبَّه به الشيب. المخلِس: الذي بعضه هائج وبعضه أخضر. شبَّه به شعره الشميط، وهو الذي اختلط بياضه بالسواد.

(٣) البيتان لمجنون ليلىٰ في ديوانه (٩٢)

ثم **الشوق**، وهو سفر القلب إلىٰ المحبوب أحثَّ السفر، وقد جاء إطلاقه في حقِّ الرب تعالىٰ.

كما في «مسند الإمام أحمد»[١] من حديث عمَّار بن ياسر: أنه صلَّىٰ صلاةً فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال: أمَا إنّي دعوتُ فيها بدعَواتٍ كان النبي ﷺ يدعو بهنَّ: «**اللهم إنّي أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أحْيِني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم وَأسالك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمةَ الحقِّ في الغضب والرضا، وأسألك القصدَ في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيمًا لا ينفَد، وأسألك قرةَ عينٍ لا تنقطع، وأسألك بردَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلىٰ لقائك، في غير ضرَّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فتنةٍ مضِلَّة، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين**».

وأطيبُ العيش وألذُّه علىٰ الإطلاق عيش المحبِّين المشتاقين المستأنسين؛ فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياةَ للعبد أطيبُ ولا أنعمُ ولا أهنأَ منها، وهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداءُ الله علىٰ أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفةً.

وقد ضَمِن الله سبحانه لكلِّ من عمل صالحًا أن يُحيِيَه حياةً طيبة؛ فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأيُّ حياةٍ أطيب من حياةِ مَن اجتمعت همومه كلُّها

---

(١) (٤/ ٢٦٤) برقم (١٨٣٢٥)، وأخرجه النسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦)، وصححه ابن حبان (١٩٧١).

وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله، ولَمَّ شعثَ قلبه بالإقبال علىٰ الله، واجتمعت إراداته وأفكاره -التي كانت منقسمةً بكلِّ وادٍ منها شعبة- علىٰ الله؟! فصار ذكرُ محبوبه الأعلىٰ، وحبُّه، والشوق إلىٰ لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإراداته وقصوده، بل خطرات قلبه؛ فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يُبصر، وبه يَبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث.

كما في «صحيح البخاري» عنه ﷺ فيما يروي عن ربِّه ﷻ أنَّه قال: **«ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتَّىٰ أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها؛ فبي يسمع، وبي يُبصِر، وبي يَبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذَنَّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموتَ وأكره مَساءتَه، ولابدَّ له منه»**[1].

وتأمل كيف قال: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش**» ولم يقل: فلي يسمع، ولي يبصر، ولي يبطش.

وربما يظنُّ الظانُّ أنَّ اللام أولىٰ بهذا الموضع؛ إذ هي أدلُّ علىٰ الغاية ووقوع هذه الأمور لله، وذلك أخصُّ من وقوعها به، وهذا من الوهم والغلط؛ إذ ليست الباء هاهنا لمجرَّد الاستعانة؛ فإنَّ حركاتِ الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنَّما هي بمعونة الله لهم.

وإنَّما الباء هاهنا للمصاحبة، أي: إنما يسمع ويُبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبُه

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، ما عدا قوله: «فبي يسمع... وبي يمشي».

ومعه، كقوله في الحديث الآخر: «أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحرَّكَتْ بي شفتاه»[١].

وهذه هي المعيَّة الخاصَّة المذكورة في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقول النبي ﷺ: «ما ظنُّك باثنينِ اللهُ ثالثهما!»[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

فهذه الباء مفيدة لمعنىٰ هذه المعية دون اللام، ولا يتأتَّىٰ للعبد الإخلاص والصبر والتوكُّل ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء، وهذه المعية.

فصل

ص ٤٣٨
التتيم آخر مراتب الحب

ثم **التتيُّم**، وهو آخر مراتب الحبّ، وهو تعبُّد المحبِّ لمحبوبه. يقال: تيَّمه الحبُّ؛ إذا عبَّدَه. ومنه: تَيْم الله، أي: عَبْد الله.

وحقيقة التعبد: الذلُّ والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم: «طريق معبَّد» أي: مذلَّل قد ذلَّلته الأقدام؛ فالعبد هو الذي ذلَّله الحبُّ والخضوع لمحبوبه؛ ولهذا كانت أشرفُ أحوال العبد ومقاماته هي العبوديةَ، فلا منزل له أشرفُ منها.

وقد ذكر الله سبحانه أكرمَ الخلق عليه وأحبَّهم إليه -وهو رسوله محمد ﷺ-

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠) برقم (١٠٩٧٥، ١٠٩٧٦)، وصححه ابن حبان (٨١٥).

(٢) من حديث أنس عن أبي بكر ﷺ أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي: مقام الدعوة إليه، ومقام التحدِّي بالنبوة، ومقام الإسراء؛ فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾[الإسراء: ١]. وفي حديث الشفاعة: «**اذهبوا إلىٰ محمَّدٍ، عبدٍ غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**»(١)؛ فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له.

والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، التي هي أكمل أنواع المحبة، مع أكمل أنواع الخضوع والذلِّ، وهذا هو حقيقة الإسلام، وملَّة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفِه نفسَه.

فصل

ص ٤٤٤
الخُلَّة تتضمن كمال المحبة ونهايتها

ثم **الخُلَّة**، وهي تتضمَّن كمال المحبة ونهايتَها؛ بحيث لا يبقىٰ في قلب المحبِّ سعةٌ لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجهٍ ما، وهذا المنصب خَلَصَ لخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»(٢).

وفي «الصحيح»(٣) عنه ﷺ: «**لو كنتُ متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله**».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٥)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي حديثٍ آخر: «إني أبرَأ إلىٰ كلِّ خليلٍ من خُلَّته»(١).

ولمَّا سأل إبراهيمُ الولدَ، فأُعطِيَه، وتعلَّق حبُّه بقلبه، فأخذ منه شعبةً؛ غار الحبيبُ على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه.

وكان الأمر في المنام؛ ليكون تنفيذ المأمور به أعظمَ ابتلاءً وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه، ليخلُصَ القلبُ للربِّ، فلما بادر الخليلُ إلىٰ الامتثال، وقدَّم محبة الله علىٰ محبة ولده؛ حصل المقصود، فرُفع الذَّبح، وفُدي بذِبح عظيم.

ص ٤٤٧
العبد لا يترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه

فصل

وقد تقدَّم أنَّ العبد لا يترك ما يحبُّه ويهواه إلا لِما يحبه ويهواه، لكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبةً؛ كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبتُه أقوىٰ عنده من كراهة ما يفعله، أو لخلاصه من مكروهٍ كراهتُه عنده أقوىٰ من كراهة ما يفعله.

وتقدَّم أنَّ خاصية العقل إيثارُ أعلىٰ المحبوبين علىٰ أدناهما، وأيسر المكروهين علىٰ أقواهما، وتقدَّم أنَّ هذا كمال قوة الحب والبغض.

ولا يتمُّ له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب.

فالحبُّ والإرادة أصلُ كلِّ فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كلِّ ترك ومبدؤه، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته.

---

(١) جزء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق عند مسلمٍ بنحوه. وهذا لفظ أحمد (١/ ٣٧٧) برقم (٣٥٨٠)، وابن ماجه (٩٣)، وغيرهما.

ووجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة، وأما عدم الفعل؛ فتارةً يكون لعدم مقتضيه وسببه، وتارةً يكون لوجود البغض والكراهة المانع منه، وهذا متعلَّق الأمر والنهي، وهو الذي يسمَّىٰ الكفَّ، وهو متعلَّق الثواب والعقاب.

وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك، هل هو أمر وجودي أو عدمي؟ والتحقيق أنَّه قسمان: فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضي عدميٌّ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي.

فصل

ص ٤٤٩ الفعل والترك يدوران حول المنفعة والألم

وكلُّ واحدٍ من الفعل والترك الاختياريَّين إنَّما يُؤثره الحيُّ لِما فيه من حصول المنفعة التي يلتذُّ بحصولها، أو زوالِ الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله؛ ولهذا يقال: شفىٰ صدره، وشفىٰ قلبه، قال:

هي الشفاءُ لدائي لو ظفرتُ بها ... وليس منها شفاءُ الداءِ مبذولُ[1]

وهذا مطلوب يُؤثِره العاقل، بل الحيوان البهيم؛ ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطًا قبيحًا؛ فيقصد حصول اللذَّة بما يُعقِب عليه أعظمَ الألم؛ فيؤلم نفسه من حيث يظنُّ أنه يُحصِّل لذتها، ويشفي قلبه بما يُعقب عليه غاية المرض، وهذا شأن من قصَرَ نظرَه علىٰ العاجل ولم يلاحظ العواقب.

وخاصَّةُ العقل: النظر في العواقب، فأعقَلُ الناسِ من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة علىٰ العاجلة المنقضية الزائلة، وأسفهُ الخلقِ من باع نعيم الأبد، وطيبَ

(١) البيت لهشام بن عقبة، أخي ذي الرمة، وهو من شواهد سيبويه (١/ ١٧، ٧٧١).

الحياة الدائمة، واللذةَ العظمىٰ التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجهٍ ما بلذَّةٍ منغَّصةٍ مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء[1]: فكَّرتُ فيما يسعىٰ فيه العقلاء؛ فرأيتُ سعيهم كلَّه في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله؛ رأيتهم جميعهم إنّما يسعَون في دفع الهمِّ والغمِّ عن نفوسهم؛ فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب، فقلتُ: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلَّها غيرُ موصلة إليه، بل لعلَّ أكثرَها إنَّما يوصل إلىٰ ضدِّه، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلةً إلا الإقبالَ علىٰ الله ومعاملته وحده، وإيثارَ مرضاته علىٰ كلِّ شيء.

فصل

ص ٤٥١
المحبوب قسمان

والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره، والمحبوب لغيره لابدَّ أن ينتهي إلىٰ المحبوب لنفسه، دفعًا للتسلسل المحال، وكلُّ ما سوىٰ المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يُحَبُّ لنفسه إلا الله وحده، وكلُّ ما سواه مما يُحَبُّ فإنَّما محبته تبع لمحبة الربِّ تعالىٰ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه؛ فإنَّها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محبته؛ فإنَّ محبة المحبوب توجب محبةَ ما يحبُّه.

وهذا موضع يجب الاعتناء به؛ فإنَّه محلُّ فرقان بين المحبة النافعة لغيره، والتي لا تنفع، بل قد تضرُّ.

---

(١) هو ابن حزم. انظر: الأخلاق والسير (١٣ - ١٦).

فاعلم أنَّه لا يُحَبُّ لذاته إلا مَن كمالُه من لِوازم ذاته، وإلهيتُه وربوبيته وغناه من لوازم ذاته.

وما سواه وإنّما يُبغَض ويكرَه لمنافاته محابَّه ومضادَّته لها، وبغضُه وكراهتُه بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها، فما كان أشدَّ منافاةً لمحابِّه كان أشدَّ كراهةً من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها.

فهذا ميزان عادل يوزن به موافقةُ الربّ ومخالفته، وموالاته ومعاداته؛ فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الربّ تعالىٰ، ويكره ما يحبُّه، علمنا أنَّ فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا الشخص يحبُّ ما يحبه الربّ، ويكره ما يكرهه، وكلَّما كان الشيء أحبَّ إلىٰ الربِّ كان أحبَّ إليه وآثرَ عنده، وكلما كان أبغض إلىٰ الربّ كان أبغضَ إليه وأبعدَ منه - علمنا أنَّ فيه من موالاة الربّ بحسب ذلك.

فتمسَّكْ بهذا الأصل غايةَ التمسُّك في نفسك وفي غيرك؛ فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابِّه ومساخطه، ليست بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ ولا تمزُّقٍ ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا:

أحدهما: ما يلتذُّ المحِبُّ بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألَّم به، ولكن يحتمله لإفضائه إلىٰ محبوبه، كشرب الدواء الكريه.

ص ٤٥٥
أصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله

فصل

وإذا كان الحبُّ أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حبُّ الله ورسوله، كما أنَّ أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله.

وكلُّ إرادة تمنع كمال الحبِّ لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة، أو شبهةٍ تمنع كمال التصديق؛ فهي معارِضة لأصل الإيمان أو مُضْعِفة له، فإنْ قويت حتىٰ عارضت أصلَ الحبِّ والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبرَ، وإنْ لم تعارضه قدحتْ في كماله، وأثَّرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتُنكِّس الراغب، فلا تصحُّ الموالاة إلا بالمعاداة.

كما قال تعالىٰ عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧]؛ فلم تصحَّ لخليل الله الموالاةُ والخُلَّة إلا بتحقيق هذه المعاداة؛ فإنَّه لا ولاءَ إلَّا ببراءٍ، ولا ولاءَ للهِ إلَّا بالبراءة من كل معبود سواه، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٧].

أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة (لا إله إلا الله)، وهي التي ورَّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة، وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام.

وروح هذه الكلمة وسرُّها: إفراد الربِّ -جلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جدُّه، ولا إله غيره- بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة؛ فلا يُحَبَّ سواه، وكلُّ ما يُحَبُّ غيره، وإنَّما يحَبُّ تبعًا لمحبته وكونِه وسيلةً إلىٰ زيادة محبته، ولا يُخاف سواه، ولا يُرجىٰ سواه، ولا يُتوكَّل إلا عليه، ولا يُرغَب إلا إليه، ولا يُرهَب إلا منه، ولا يُحلَف إلا باسمه، ولا يُنذَر إلا له، ولا يتاب إلا إليه، ولا يطاع إلا أمرُه، ولا يُتحسَّب إلا به، ولا يُستغاث في الشدائد إلا به، ولا يُلتجأ إلا إليه، ولا يُسجَد إلا له، ولا يُذبَح إلا له وباسمه.

ويجتمع ذلك كلُّه في حرفٍ واحدٍ، وهو ألا يَعْبدَ إلا إيَّاه بجميع أنواع العبادة؛ فهذا هو تحقيق شهادة (أن لا إله إلا الله)؛ ولهذا حرَّم الله علىٰ النار من شهد (أن لا إله إلا الله)، حقيقة الشهادة[١].

ومحال أن يدخل النار من تحقَّقَ بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣]؛ فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره وباطنه، في قلبه وقالبه؛ فإنَّ مِن الناس مَن تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمةً إذا نُبِّهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعةً، ومنهم من تكون إلىٰ القيام أقرب.

وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن؛ فروحٌ ميتةٌ، وروحٌ مريضةٌ إلىٰ الموت أقرب، وروح إلىٰ الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**إنِّي لأَعلمُ كلمةً لا يقولها عبدٌ عند الموت إلا وجدتْ رُوحُه لها رَوحًا**»[٢].

---

(١) كما في حديث أنس بن مالك ﷺ أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٥)، وصححه ابن حبان (٢٠٥).

فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أنَّ حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أنَّ من مات علىٰ هذه الكلمة فهو في الجنَّة يتقلَّب فيها، فمن عاش علىٰ تحقيقها والقيام بها فروحُه تتقلَّب في جنة المأوىٰ، وعيشه أطيب عيش، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنَّةُ المعرفة والمحبة والإنسِ بالله والشوقِ إلىٰ لقائه والفرح والرضا به وعنه مأوىٰ روحه في هذه الدار؛ فمن كانت هذه الجنّة مأواه هاهنا؛ كانت جنةُ الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حُرِم هذه الجنَّةَ؛ فهو لتلك أشدُّ حرمانًا، والأبرار في النعيم وإن اشتدَّ بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيمٍ وإن اتسعَتْ عليهم الدنيا.

قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وطيب الحياة جنة الدنيا.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]؛ فأيُّ نعيمٍ أطيبُ من شرح الصدر! وأيُّ عذابٍ أمرُّ من ضيق الصدر! وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فالمؤمن المخلص لله مِن أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرِّهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنَّة الآجلة.

قال النبي ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنَّة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنَّة؟ قال: «**حِلَق الذكر**»[١].

فصل

ص ٤٦١
كلما كان وجود الشيء أنفع للعبد كان تألمه أشد بفقده

وكلَّما كان وجود الشيء أنفعَ للعبد وهو إليه أحوج كان تألُّمه بفقده أشدّ، وكلَّما كان عدمه أنفع له كان تألُّمه بوجوده أشدّ.

ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعُّمه بحبه، وإيثاره لمرضاته؛ بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك، فعدمه آلَمُ شيء له، وأشدُّه عذابًا عليه، وإنما يُغيِّب الروحَ عن شهود هذا الألم والعذاب اشتغالُها بغيره، واستغراقُها في ذلك الغير؛ فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوت بفراق أحبِّ شيءٍ إليها، وأنفعه لها.

وهذا بمنزلة السكران المستغرقِ في سكره، الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوت وحسرته، حتى إذا صحا وكُشِف عنه غطاءُ السكر، وانتبه من رقدة الخمر؛ فهو أعلم بحاله حينئذ.

وهكذا الحال سواءٌ عند كشف الغطاء، ومعاينة طلائع الآخرة، والإشراف علىٰ مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلىٰ الله؛ بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشدُّ بأضعافٍ مضاعفة؛ فإنَّ المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنَّه قد

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٠)، وضعَّفه ابن عدي في الكامل (٦/ ١٣٦)، وابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٥٢).

أصيب بشيءٍ زائلٍ لا بقاء له؛ فكيف بمن مصيبتُه بما لا عوضَ عنه، ولا بدلَ منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها!

فلو قضىٰ اللهُ سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، وإنَّ الموت لَيعود أعظمَ أمنيته وأكبرَ حسراته، هذا لو كان الألم علىٰ مجرَّد الفوات؛ فكيف وهناك من العذاب علىٰ الروح والبدن بأمورٍ أخرىٰ وجوديةٍ ما لا يُقدَر قدرُه؟! فتبارك من حمَّل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي!

فاعرِضْ الآن علىٰ نفسك أعظمَ محبوبٍ لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه؛ فأصبحتَ وقد أُخِذ منك، وحيل بينك وبينه أحوجَ ما كنتَ إليه، كيف يكون حالك! هذا ومنه كلُّ عوض، فكيف بمن لا عوض عنه!

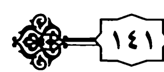
مِـن كلِّ شـيء إذا ضيَّعتَه عوض ... وما من الله إنْ ضيَّعتَه عـوضُ[١]

وفي أثر إلهي: «ابنَ آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعَبْ، وتكفَّلتُ برزقك فلا تتعَبْ، ابنَ آدم اطلُبْني تجدْني، فإن وجدتَني وجدتَ كلَّ شيء، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيء، وأنا أحب إليك من كلِّ شيء»[٢].

---

(١) بدون عزو في طبقات الشافعية (٨/ ٢٢٨).

(٢) أثر إسرائيلي كما نصَّ علىٰ ذلك شيخ الإسلام في الفتاوىٰ (٨/ ٥٢).



فصل

ص ٤٦٣
محبة الله وحده أصل السعادة ورأسها

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف؛ كان أغلب ما يُذكَر فيها في حقِّ الله تعالىٰ ما يختصُّ به ويليق به من أنواعها، ولا يصلح إلا له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوهما؛ فإنَّ العبادة لا تصلح إلا له وحده، وكذلك الإنابة.

وقد تُذكر المحبة باسمها المطلق، كقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبَّة مع الله، التي يسوِّي المحبُّ فيها بين محبته لله ومحبته للندِّ الذي اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة محبةُ الله وحده، ومحبة ما أحبَّ، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسُها، التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها.

والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها، التي لا يبقىٰ في العذاب إلا أهلها.

فأهل المحبة الذين أحبُّوا الله وعبدوه وحده لا شريك له، لا يدخلون النار، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنَّه لا يبقىٰ فيها منهم أحد.

ومدار القرآن علىٰ الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن المحبة الأخرىٰ ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين، وأوليائهم، ومعبودِ كليهما، وأخباره عن فعله بالنوعين، وعن

حال النوعين في الدور الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فالقرآن في شأن النوعين.

وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم إنَّما هو عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمِّنة لكمال حبّه، وكمال الخضوع والذلّ له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوىٰ.

وقد ثبت في «الصحيحين»[1] من حديث أنس عن النبي ﷺ أنّه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

وفي «صحيح البخاري»[2] أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، واللهِ لَأنتَ أحبُّ إليَّ من كلّ شيء إلا من نفسي. فقال: «**لا يا عمر، حتىٰ أكون أحبَّ إليك من نفسك**» فقال: والذي بعثك بالحق لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي. قال: «**الآن يا عمر**».

فإذا كان هذا شأنَ محبَّةِ عبده ورسوله، ووجوبِ تقديمها علىٰ محبَّة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين، فما الظنُّ بمحبة مُرسِله تعالىٰ ووجوبِ تقديمها علىٰ محبة ما سواه؟!

ومحبة الربّ تعالىٰ تختصُّ عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفرادِه سبحانه بها، فإنَّ الواجب له من ذلك أن يكون أحبَّ إلىٰ العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه؛ فيكون إلهُه الحقُّ ومعبودُه أحبَّ إليه من ذلك كلِّه.

---

(١) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) برقم (٦٦٣٢).

والشيء قد يُحَبُّ من وجهٍ دون وجه، وقد يُحَبُّ لغيره، وليس شيء يُحَبُّ لذاته من كلِّ وجهٍ إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له، و﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والتألُّه هو المحبة والطاعة والخضوع.

فصل

ص ٤٦٦ كل حركة في الكون أصلها المحبة

وكلُّ حركة في العالم العُلوي والسُّفلي فأصلها المحبة؛ فهي علَّتها الفاعليَّة والغائيَّة.

إذا عُرف ذلك؛ فكل حيٍّ له إرادةٌ ومحبةٌ وعملٌ بحسبه، وكل متحرِّكٍ فأصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده.

فصل

ص ٤٧٣ المحبة المحمودة هي التي تجلب ما ينفع في الدارين

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام، سواءٌ كانت محمودةً أو مذمومةً، نافعةً أو ضارَّةً، من الذوق، والوجد، والحلاوة، والشوق، والإنس، والاتصال بالمحبوب والقرب منه، والانفصال عنه والبعد منه، والصدِّ والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان سعادته، والضارَّةُ هي التي تجلب لصاحبها ما يضرُّه في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته.

ومعلوم أنَّ الحيَّ العاقل لا يختار محبةَ ما يضرُّه ويُشقيه، وإنَّما يصدر ذلك عن جهلٍ وظلمٍ؛ فإنَّ النفس قد تهوىٰ ما يضرُّها ولا ينفعها، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه، إما بأن تكون جاهلةً بحال محبوبها؛ بأن تهوىٰ الشيء وتحبَّه غيرَ عالمةٍ بما في محبته من المضرَّة، وهذا حال من اتَّبَع هواه بغير علم، وإما عالمةً بما في محبته من المضرَّة، لكن تُؤثر هواها علىٰ عِلْمها، وقد تتركَّب محبتها من أمرين: اعتقادٍ فاسدٍ، وهوىٰ مذموم، وهذا حال من اتبع الظنَّ وما تهوىٰ الأنفس.

فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل واعتقاد فاسد، أو هوىٰ غالب، أو ما تركَّب من ذلك، وأعان بعضه بعضًا؛ فتتفق شبهةٌ يشتبه بها الحقُّ بالباطل تُزيِّن له أمرَ المحبوب، وشهوةٌ تدعوه إلىٰ حصوله؛ فيتساعد جيش الشبهة والشهوة علىٰ جيش العقل والإيمان، والغلبة لأقواهما.

وإذا عرف هذا؛ فتوابع كلِّ نوع من أنواع المحبة له حكمُ متبوعِه؛ فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد، توابعُها كلُّها نافعةٌ له، حكمُها حكمُ متبوعِها؛ فإن بكىٰ نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوَّة.

والمحبة الضارَّة المذمومة توابعُها وآثارها كلُّها ضارَّةٌ لصاحبها، مُبعِدة له من ربِّه، كيفما تقلَّب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد.

وهذا شأن كلِّ فعلٍ تولَّد عن طاعة ومعصية؛ فكل ما تولَّد عن الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقربة، وكل ما تولَّد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبُعدٌ.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **[التوبة: ١٢٠- ١٢١]**.

فأخبر سبحانه في الآية الأولى أنَّ المتولِّد عن طاعتهم وأفعالهم يُكتَب لهم به عمل صالح، وأخبر في الثانية أنَّ أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتَب لهم أنفسُها، والفرق بينهما: أنَّ الأول ليس من فعلهم، وإنَّما تولَّد عنه فكُتِب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أفعالهم فكُتبت لهم.

فليتأمَّلْ قتيلُ المحبة هذا الفصل حقَّ التأمل ليعلم ما له وما عليه.

سيعلم يومَ العرض أيَّ بضاعةٍ أضاعَ وعند الوزن ما كان حَصَّلا

فصل

ص ٤٧٦
المحبة أصل لكل دين

وكما أنَّ المحبة والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ كما تقدَّم، فهي أصلُ كلِّ دينٍ، سواءٌ كان حقًّا أو باطلًا؛ فإنَّ الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبَّةُ والإرادةُ أصل ذلك كلّه.

والدِّين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أمرًا أو جزاءً، والمحبة أصل كل واحد من الدينين.

فصل

ص ٤٨٢
مفاسد عشق الصور

ونختم الجواب بفصلٍ يتعلَّق بعشق الصور، وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعافَ ما يذكره ذاكر؛ فإنَّه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد نفس التوحيد كما تقدَّم، وكما سنقرِّره أيضًا إن شاء الله.

والله سبحانه إنَّما حكىٰ هذا المرض عن طائفتين من الناس، وهما اللوطية، والنساء، فأخبر عن عشق امرأة العزِيز ليوسف وما راودَتْه وكادَتْه به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفَّته وتقواه، مع أنَّ الذي ابتلي به أمرٌ لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله عليه؛ فإنَّ موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركَّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلىٰ المرأة كما يميل العطشان إلىٰ الماء والجائع إلىٰ الطعام.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابًّا، وشهوة الشباب وحدَّته أقوىٰ.

الثالث: أنه كان عَزَبًا ليس له زوجة ولا سُرِّيَّة تكسر شدَّة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غُربةٍ يتأتَّىٰ للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتّىٰ له في وطنه بين أهله ومعارفه.

الخامس: أنَّ المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث إنَّ كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلىٰ مُواقَعَتِها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يُزيل رغبتَه في المرأة إباؤها وامتناعها.

السابع: أنَّها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد؛ فكفَتْه مؤنة الطلب، وذلَّ الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنَّه في دارها وتحت سلطانها وقهرها؛ بحيث يخشىٰ إن لم يطاوعها مِن أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنَّه لا يخشىٰ أن تنُمَّ عليه هي، ولا أحدٌ مِن جهتها؛ فإنَّها هي الطالبة والراغبة، وقد غلَّقت الأبواب، وغيَّبت الرقباء.

العاشر: أنَّه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار؛ بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكَر عليه؛ فكان الإنس سابقًا علىٰ الطلب، وهو من أقوىٰ الدواعي.

الحادي عشر: أنَّها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرَتْه إيَّاهنّ، وشكت حالَها إليهنَّ؛ لتستعين بهنَّ عليه؛ فاستعان هو بالله عليهن فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها تواعدته بالسجن والصَّغار، وهذا نوع إكراه؛ إذ هو تهديد ممن يغلب علىٰ الظنِّ وقوعُ ما هدَّد به؛ فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أنَّ الزوج لم يَظهر منه من الغيرة والنخوة ما يفرِّق به بينهما، ويُبعد كلًّا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلهما به أن قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، وللمرأة: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وشدة الغيرة في الرجل من أقوىٰ الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلِّها فآثر مرضاةَ الله وخوفَه، وحمله حبُّه لله علىٰ أن اختار السجن علىٰ الزنا، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ﴾ [يوسف: ٣٣]، وعلم أنَّه لا يُطيق

صرفَ ذلك عن نفسه، وأنَّ ربَّه تعالىٰ إنْ لم يعصِمْه ويصرِفْه عنه صبا إليهنَّ بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربِّه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحِكَم ما يزيد على ألفِ فائدةٍ، لعلَّنا إن وفَّق الله أن نفردها في مصنَّف مستقلٍّ.

فصل

ص ٤٨٧
عشق اللوطية

والطائفة الثانية الذين حُكي عنهم العشق هم اللوطية.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧٢].

فحكاه سبحانه عن طائفتين عشِقَ كلٌّ منهما ما حُرِّم عليه من الصور، ولم يبال بما في عشقه من الضرر، وهذا داء أعيا الأطبَّاءَ دواؤه، وعزَّ عليهم شفاؤه، وهو -لَعمرُ الله- الداء العضال، والسم القتَّال، الذي ما عَلِقَ بقلبٍ إلا وعزَّ علىٰ الورىٰ استنقاذُه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب علىٰ الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام: فإنَّه تارةً يكون كفرًا.

كمن اتخذ معشوقَه نِدًّا يحبُّه كما يحبُّ الله؛ فكيف إذا كانت محبته أعظمَ من محبة الله في قلبه؟! فهذا عشقٌ لا يُغفر لصاحبه؛ فإنَّه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يُشرَك به، وإنما يُغفَر بالتوبة الماحية.

وعلامة هذا العشق الشركي الكفري أن يقدِّم العاشقُ رضا معشوقه علىٰ رضا ربِّه، وإذا تعارض عنده حقُّ معشوقه وحظُّه وحقُّ ربِّه وطاعتُه قدَّم حقَّ معشوقه علىٰ حقِّ ربه، وآثر رضاه علىٰ رضاه، وبذل لمعشوقه أنفَسَ ما يقدِر عليه، وبذل لربِّه -إن بذل- أردأ ما عنده، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرُّبِ إليه، وجعَلَ لربِّه -إن أطاعه- الفضلةَ التي تفضُل عن معشوقه من ساعاته.

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة؛ فإنَّ تلك ذنب كبير، لفاعله حكمُ أمثاله، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك.

وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأَن أُبتلىٰ بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إليَّ من أن أبتلىٰ فيها بعشقٍ يتعبَّد لها قلبي ويَشْغَله عن الله.

فصل

ص ٤٩٠ الإخلاص لله أنفع دواء للصرف عن الفاحشة

ودواء هذا الداء القتَّال: أن يعرف ما ابتُلي به من الداء المضادِّ للتوحيد أولًا، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يَشْغَل قلبَه عن دوام الفكرة فيه، ويُكثر اللجأ والتضرُّع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يراجع بقلبه إليه.

وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه؛ حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلِصِينَ[1]﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فأخبر سبحانه أنَّه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل

(١) «المخلصين» بكسر اللام، علىٰ قراءة أبي عمرو. انظر: السبعة لابن مجاهد (٣٤٨). وهي قراءة المؤلف، واستدلاله مبني عليها.

بإخلاصه؛ فإنَّ القلب إذا خلَصَ وأخلص عملَه لله لم يتمكَّن منه عشق الصور؛ فإنَّه إنَّما يتمكن من قلبٍ فارغ، كما قال:

فصـادف قلبًـا خاليًـا فتمكَّنـا

وليعلم العاقل أنَّ العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلَها، وإعدامَ المفاسد وتقليلَها؛ فإذا عرض للعاقل أمرٌ يرىٰ فيه مصلحةً ومفسدةً وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي؛ فالعلميُّ: طلبُ معرفة الراجح من طرفَي المصلحة والمفسدة؛ فإذا تبيَّن له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعافُ أضعافِ ما يقدَّر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحبِّ المخلوق وذكره عن حبِّ الربِّ تعالىٰ وذكره؛ فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدُهما صاحبَه، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه؛ فإنَّ من أحبَّ شيئًا غيرَ الله عُذِّب به ولابدَّ:

فما في الأرض أشقى من محبٍّ وإن وَجَد الهوى حُلْوَ المذاقِ
تراه باكيًا في كل حينٍ مخافةَ فُرْقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نَأَوْا شوقًا إليهم ويبكي إن دَنَوا حذرَ الفراقِ
فتسخَن عينُه عند الفراق وتسخَن عينُه عند التلاقي[1]

والعشق، وإن استعذبه العاشق؛ فهو من أعظم عذاب القلب.

---

(١) الأبيات لنصيب في ديوانه المجموع (١١١).

الثالث: أنَّ العاشق قلبُه أسيرٌ في قبضة معشوقه، يسومه الهوانَ، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه، فقلبُه:

كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يسومُها   حياضَ الردى والطفل يلهو ويلعب[1]

فعيشُ العاشق عيشُ الأسير الموثَق، وعيشُ الخليِّ عيشُ المسيَّب المطلَق. فالعاشق كما قيل:

طليقٌ برأي العينِ وهو أسير   عليلٌ على قطب الهلاك يدورُ

ومَيْتٌ يُرى في صورة الحيِّ غاديًا   وليس له حتى النشور نشورُ

أخو غمَراتٍ ضاع فيهن قلبُه   فليس له حتى الممات حضورُ

الرابع: أنَّه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه؛ فليس شيءٌ أضيعَ لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور.

أمَّا مصالح الدين فإنَّها منوطة بلَمِّ شَعَثِ القلب وإقبالِه علىٰ الله، وعشقُ الصور أعظم شيءٍ تشعيثًا وتشتيتًا له.

وأمَّا مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين؛ فمن انفرطت عليه مصالحُ دينه وضاعت عليه، فمصالحُ دنياه أضيَعُ وأضيَعُ.

الخامس: أنَّ آفات الدنيا والآخرة أسرع إلىٰ عشَّاق الصور من النار في يابس الحطب.

وسبب ذلك: أنَّ القلب كلَّما قَرُبَ من العشق وقويَ اتصالُه به بَعُدَ من الله، فأبعدُ القلوب من الله قلوب عشَّاق الصور، وإذا بعدُ القلب من الله طرقته الآفات من

---

(١) نسب البيت إلىٰ ابن الزيَّات في معجم الشعراء للمرزباني (٣٦٦)، والفتح بن خاقان في الزهرة (٨٥).

كل ناحية؛ فإنَّ الشيطان يتولَّاه، ومن تولَّاه عدوُّه واستولىٰ عليه لم يألُه وَبالًا[١]، ولم يدَعْ أذًىٰ يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظنُّ بقلبٍ تمكَّن منه عدوُّه وأحرَصُ الخلقِ علىٰ غَيِّه وفسادِه، وبعُد منه وليُّه، ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته!

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانُه أفسد الذهنَ، وأحدث الوسواسَ، وربما التحق صاحبُه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها، وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهَدٌ بالعِيان.

وقد رُفع إلىٰ ابن عباس، وهو بعرفة، شابٌّ قد انتحل[٢] حتىٰ عاد عظمًا بلا لحم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق. فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامّةَ يومه[٣].

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه همٌّ وشغلُ قلبٍ وسقمٌ، وآخره عطَبٌ وقتل إن لم يتداركه عناية من الله، كما قيل:

وعِشْ خاليًا فالحبُّ أوَّلُه عَنا ... وأوسطه سُقْمٌ وآخره قتلُ[٤]

وقال آخر:

تولَّعَ بالعشق حتَّى عشِقْ ... فلمَّا استقلَّ به لم يُطِقْ

---

(١) أي: لم يُقصِّر في جلب الوبال وسوء العاقبة له.

(٢) أي: نَحَل جسمُه وضعُف.

(٣) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٣٢٢)، وابن الجوزي في ذم الهوىٰ (٣٧٣).

(٤) لابن الفارض في ديوانه (١٣٤)، وروايته: فالحب راحته عنا، وأوله سقم.

رأى لُجَّـةً ظنَّهـا مـوجـةً   فـلـما تـمكّـن منـها غـرِقْ(١)

والذنب له؛ فهوِ الجاني علىٰ نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: «يداكَ أَوْكَتا، وفُوكَ نَفَخ».

فصل

ص ٤٩٩ للعاشق ثلاث مقامات

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه، فالواجب عليه فيه مدافعتُه بكلِّ ما يقدر عليه، إذا كان الوصول إلىٰ معشوقه متعذِّرًا قدرًا أو شرعًا.

فإن عَجَز عن ذلك، وأبىٰ قلبُه إلا السفر إلىٰ محبوبه -وهذا مقام التوسط والانتهاء- فعليه كتمانُ ذلك، وألا يُفشيَه إلىٰ الخلق، ولا يُشبِّبَ بمحبوبه ويهتكه بين الناس؛ فيجمع بين الشرك والظلم؛ فإنَّ الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررًا علىٰ المعشوق وأهله من ظلمه في ماله؛ فإنَّه يعرِّض المعشوق بتهتُّكه في عشقه إلىٰ وقوع الناس فيه، وانقسامهم إلىٰ مصدِّق ومكذِّب، وأكثر الناس يصدِّق في هذا الباب بأدنىٰ شبهة.

فإن استعان عليه بمن يستميله إليه، إما برغبةٍ أو رهبةٍ، تعدَّىٰ الظلمُ وانتشر، وصار ذلك الواسطة ديُّوثًا ظالمًا.

فإنْ طلب العاشقُ وصْلَ معشوقه ومشاركةَ الزوج والسيِّد؛ ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعلَّه لا يقصُر عن إثم الفاحشة إن لم يربُ عليها.

(١) من أبيات نقلها ابن الجوزي في ذمّ الهوىٰ (٦٨٥) من إنشاد ابن نحرير البغدادي.

ولا يسقط حقُّ الغير بالتوبة من الفاحشة، فإنَّ التوبة وإن أسقطَتْ حقَّ الله فحقُّ العبد باقٍ، له المطالبةُ به يومَ القيامة؛ فإنَّ ظلمَ الوالد بإفساد فلذة كبده ومن هو أعزُّ عليه من نفسه، وظلمَ الزوج بإفساد حبيبته والجنايةِ علىٰ فراشه، أعظمُ من ظلمه بأخذ ماله كلِّه؛ ولهذا يؤذيه ذلك أعظمَ مما يؤذيه أخذُ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفكُ دمه؛ فيا له من ظلمٍ أعظمَ إثمًا مِن فعلِ الفاحشة!

فإن استعان العاشقُ علىٰ وصال معشوقه بشياطين الجنِّ -إما بسحر أو استخدامٍ أو نحو ذلك- ضمَّ إلىٰ الشرك والظلم كفرَ السحر، فإن لم يفعله هو ورضي به كان راضيًا بالكفر غيرَ كارهٍ لحصول مقصده به، وهذا ليس ببعيد من الكفر.

والمقصود: أنَّ التعاون في هذا الباب تعاون علىٰ الإثم والعدوان.

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدِّي ضررُه، فأمرٌ لا يخفىٰ؛ فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق، فللمعشوق أغراض أُخَر يريد من العاشق إعانتَه عليها، فلا يجد من إعانته بُدًّا، فيبقىٰ كل منهما يعين الآخر علىٰ الظلم والعدوان.

فكلُّ هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور، وربما حمل علىٰ الكفر الصريح.

وقد تنصَّر جماعة ممن نشأ في الإسلام بسبب العشق، كما جرىٰ لبعض المؤذنين حين أبصر امرأةً جميلة علىٰ سطح؛ ففُتِن بها، فنزل ودخل عليها، وسألها نفسَها، فقالت: هي نصرانية، فإن دخلتَ في ديني تزوَّجتُ بك، ففعل؛ فرقي ذلك اليوم علىٰ درجةٍ عندهم، فسقط منها، فمات. ذكر هذا عبد الحقّ في كتاب «العاقبة» له[1].

---

(١) ص (١٧٩).

والمعشوق إذا لم يتّق الله؛ فإنه يعرّض العاشق للتلف -وذلك ظلم منه- بأن يُطمعه في نفسه، ويتزيّن له، ويستميله بكلّ طريق، حتىٰ يستخرج منه ماله ونفعه، ولا يمكّنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه؛ فهو يسومه سوء العذاب.

فعلىٰ العاقل ألا يُحكِم علىٰ نفسه عشقَ الصور لئلا يؤدِّيه ذلك إلىٰ هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها، فمن فعل ذلك فهو المفرِّط بنفسه المغرِّر بها، فإذا هلكتْ فهو الذي أهلكها؛ فلولا تكرارُه النظرَ إلىٰ وجه معشوقه وطمعُه في وصاله لم يتمكّن عشقُه من قلبه.

فإنَّ أول أسباب العشق الاستحسان، سواءٌ تولَّد عن نظر أو سماع.

فإن لم يقارنه طمع في الوصال، وقارنه الإياس من ذلك، لم يحدث له العشق.

فإن اقترن به الطمع؛ فصرفه عن فكره ولم يشتغل قلبُه به لم يحدث له ذلك.

فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق، وقارنه خوفُ ما هو أكبر عنده من لذة وصاله؛ إما خوف ديني كدخول النار، وغضب الجبار، واحتقاب الأوزار، وغلب هذا الخوف علىٰ ذلك الطمع والفكر - لم يحدث له العشق.

فإن فاته هذا الخوف؛ فقارنه خوف دنيوي، كخوف تَلَفِ نفسه وماله، وذَهاب جاهه وسقوطِ مرتبته عند الناسِ، وسقوطِه من عين من يعزُّ عليه؛ وغلب هذا الخوف لداعي العشق - دَفعَه.

وكذلك إذا خاف من فوات محبوبٍ هو أحبُّ إليه وأنفع له من ذلك المعشوق، وقدَّم محبتَه علىٰ محبة المعشوق - اندفع عنه العشق.

فإن انتفىٰ ذلك كلُّه، أو غلبت محبةُ المعشوق لذلك؛ انجذب إليه القلب بكليَّته، ومالت إليه النفس كلَّ الميل.

فإن قيل: قد ذكرتم آفاتِ العشق ومضارَّه ومفاسدَه؛ فهلَّا ذكرتم منافعَه وفوائده التي من جملتها رقة الطبع، وترويح النفس، وخفَّتها، وزوال ثقلها، ورياضتها، وحملها علىٰ مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقَّة الحاشية ولطف الجانب.

وقد قيل ليحيىٰ بن معاذ الرازي: إنَّ ابنك عشق فلانة. فقال: الحمد لله الذي صيَّره إلىٰ طبع الآدمي!

وقال بعضهم: العشق داءُ أفئدة الكرام.

وقال غيره: العشق لا يصلح إلا لذي مروءةٍ ظاهرةٍ وخليقة طاهرة، أو لذي لسانٍ فاضل وإحسان كامل، أو لذي أدبٍ بارع وحسب ناصع.

وقال آخر: العشق يُشجِّع جَنان الجبان، ويصفِّي ذهن الغبيِّ، ويسخِّي كفَّ البخيل، ويُذِلُّ عزَّةَ الملوك، ويسكِّن نوافر الأخلاق، وهو أنيس من لا أنيس له، وجليس من لا جليس له[1].

وقال آخر: العشق يزيل الأثقال، ويلطِّف الروح، ويصفِّي كدر القلب، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام، كما قال[2]:

سيهلك في الدنيا شفيقٌ عليكمُ ... إذا غاله من حادث الحبِّ غائلُه

كريم يُميت السرَّ حتَّى كأنه ... إذا استفهموه عن حديثك جاهلُه

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٨٢٣).

(٢) ديوان كُثيِّر عَزَّة (٢٤٧ - ٢٤٨).

يـودُّ بـأن يُمسـي سـقيمًا لعلَّهـا إذا سمعتْ عنه بشكوى تُراسِلُه

ويهتـزُّ للمعروف في طلـب العُلا لِتُحمَد يومًا عند ليلى شمائلُه

فالعشق يحمل علىٰ مكارم الأخلاق.

وقال بعض الحكماء: العشق يروِّض النفس، ويهذب الأخلاق، إظهاره طَبْعي، وإضماره تكلُّفي.

وقال آخر: من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجيِّ والوجه البهيِّ، فهو فاسد المزاج، محتاج إلىٰ علاج.

وأنشدوا في ذلك:

إذا أنت لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى فأنت وعَيرٌ في الفلاة سـواءُ(١)

ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلَّقُه فعلُ الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام في العشق العفيف من الرجل الظريف الذي يأبىٰ له دينُه وعفَّتُه ومروءته أن يُفسِد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا كعشق السلف الكرام والأئمة الأعلام.

ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسَن من الأسانيد، وهو حديث سُوَيد بن سعيد، عن علي بن مُسهر، عن أبي يحيىٰ القتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس يرفعه: «**من عشِقَ وعفَّ وكتَم، فمات، فهو شهيد**»(٢).

---

(١) ذمّ الهوىٰ (٦٠٣)، والواضح المبين (٥٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ١٩٥)، وابن الجوزي في ذم الهوىٰ (١٠١).

فالجواب، وبالله التوفيق: أنَّ الكلام في هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضارّ، ولا يُسْجَل[1] عليه بالذمِّ والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة، وإنما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلَّقه، وإلا فالعشق من حيث هو لا يُحمَد ولا يُذَمّ، ونحن نذكر النافع من الحبِّ والضارَّ، والجائز والحرام.

اعلم أنَّ أنفع المحبة علىٰ الإطلاق وأوجَبها وأعلاها وأجلَّها محبةُ مَن جُبلت القلوب علىٰ محبته، وفطرت الخليقة علىٰ تألُّهه، وبها قامت الأرضَ والسماوات، وعليها فُطِرت المخلوقات، وهي سرُّ شهادة (أن لا إله إلا الله)؛ فإنَّ «الإله» هو الذي تألَهه القلوبُ بالمحبة والإجلال والتعظيم والذلّ والخضوع، وتعبدُه، والعبادة لا تصحُّ إلا له وحده، و«العبادة» هي كمال الحبّ مع كمال الخضوع والذلّ، والشركُ في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله، والله تعالىٰ يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنَّما يُحَبُّ تبعًا لمحبته.

وقد دلَّ علىٰ وجوب محبته سبحانه جميعُ كتبه المنزلة، ودعوةُ جميع رسله، وفطرتُه التي فَطَر عبادَه عليها، وما ركَّب فيهم من العقول، وما أسبَغَ عليهم من النعَم؛ فإنَّ القلوب مفطورة مجبولة علىٰ محبة من أنعَمَ عليها وأحسن إليها؛ فكيف بمن كلُّ الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له؟! كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وما تعرَّف به إلىٰ عباده من أسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ، وما دلَّت عليه آثارُ مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

---

(١) أسجل الحكم: أرسله. والمقصود: أنه لا يحكم عليه مطلقًا بالمدح أو الذمّ.

والمحبة لها داعيان: الجمال والإجمال[(١)]، والربُّ تعالىٰ له الكمال المطلق من ذلك؛ فإنَّه جميل يحبُّ الجمال، بل الجمال كلُّه له، والإجمال كلُّه منه؛ فلا يستحقُّ أن يُحَبَّ لذاته من كل وجه سواه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد أقسم النبي ﷺ أنَّه لا يؤمن عبدٌ حتىٰ يكونَ هو أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين[(٢)]؛ فكيف بمحبة الربِّ ﷻ!

وقال لعمر بن الخطاب: «**لا حتَّىٰ أكون أحبَّ إليك من نفسك**»[(٣)]، أي: لا تؤمن حتىٰ تصل محبتك لي إلىٰ هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولىٰ بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها، أفليس الربُّ - جل جلاله وتقدّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جدُّه، ولا إله غيره- أولىٰ بمحبّيه وعباده من أنفسهم!

وكلُّ ما منه إلىٰ عبده المؤمن يدعوه إلىٰ محبته، مما يحبُّ العبد أو يكره، فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه، ولطفه وبرُّه، ورحمته وإحسانه، وسَتره وعفوه، وحلمه وصبره علىٰ عبده، وإجابته لدعائه، وكشفُ كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التامّ عنه من جميع الوجوه - كلُّ ذلك داعٍ للقلوب إلىٰ تألّهه ومحبته.

بل تمكينُه عبدَه من معصيته، وإعانتُه عليه وسَترُه حتى يقضي وطره منها، وكلاءته وحراسته له وهو يقضي وطره من معصيته، بعينه، ويستعين عليها

---

(١) الإجمال: الإحسان والإنعام والإفضال.

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

بنعمه، من أقوى الدواعي إلى محبته؛ فلو أنَّ مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شيءٍ من ذلك لم يملك قلبَه عن محبته، فكيف لا يحبُّ العبدُ بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته!

فخيرُه إليه نازل، وشرُّه إليه صاعد، يتحبَّب إليه بنعمه وهو غنيّ عنه، والعبد يتبغَّض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه(١)! فلا إحسانُه وبرُّه وإنعامه عليه يصدُّه عن معصيته، ولا معصيةُ العبد ولؤمُه يقطع إحسانَ ربّه عنه! فأَلأَمُ اللؤم تخلُّفُ القلوب عن محبة مَن هذا شأنه، وتعلقُها بمحبة سواه!

وأيضًا: فكلُّ من تحبُّه من الخلق ويحبُّك إنّما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله ﷻ يريدك لك، كما في الأثر الإلهي: «عبدي، كلٌّ يريدك لنفسه، وأنا أريدك لك»؛ فكيف لا يستحيي العبدُ أن يكون ربه له بهذه المنزلة، وهو مُعرِض عنه، مشغول بحبِّ غيره، قد استغرق قلبَه محبةُ سواه؟!

وأيضًا: فكلُّ من تُعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يُعاملك، ولا بدَّ له من نوع من أنواع الربح، والربُّ تعالىٰ إنَّما يعاملك لتربحَ أنت عليه أعظمَ الربح وأعلاه؛ فالدرهم بعشرة أمثاله إلىٰ سبعمائة ضِعفٍ إلىٰ أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة، وهي أسرع شيء محوًا.

وأيضًا فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كلَّ شيء لك في الدنيا والآخرة؛ فمن أولىٰ منه باستفراغ الوسع في محبته، وبذل الجهد في مرضاته؟!

وأيضًا فمطالبك بل مطالب الخلق كلهم جميعًا لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأعطىٰ عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمِّله.

---

(١) مأخوذ من أثر إلهي، قال وهب بن منبه: إنه قرأه في بعض الكتب. انظر: حلية الأولياء (٤/ ٣١).

يشكر القليل من العمل وينمّيه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، لا يَشْغَلُه سمعٌ عن سمع، ولا يغلِّطُه كثرة المسائل، ولا يتبرَّم بإلحاح الملِحِّين، بل يحبُّ الملحِّين في الدعاء، ويُحِبُّ أن يُسألَ، ويغضب إذا لم يُسأل، يستحيي من عبده حيث لا يستحيي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه.

دعاه بنِعَمه وإحسانه وأياديه إلىٰ كرامته ورضوانه، فأبىٰ، فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهدَه، ثم نزل سبحانه إليه بنفسه وقال: «**من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»(١).

أدعوكَ للوصل تأبَى ... أبعَثْ رسولي في الطلَبْ
أنزِلْ إليكَ بنفسي ... ألقاكَ في النُّوَّامْ!

وكيف لا تحبُّ القلوبُ من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيّئات إلا هو، ولا يجيب الدعَوات إلا هو، ولا يُقيل العثَرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكرُبات، ويُغيث اللهفات، ويُنيل الطلَبات سواه!

فهو «أحقُّ مَن ذُكِر، وأحقُّ من شُكِر، وأحقُّ من عُبد، وأحقُّ من حُمِد، وأنصَر من ابتُغِي، وأرأف من ملَك، وأجود من سُئل، وأوسع من أعطىٰ، وأرحم من استُرْحِم، وأكرم من قُصِد»(٢)، وأعزُّ من التُجئ إليه، وأكفىٰ من تُوُكِّل عليه، أرحَمُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) لفظ حديث أخرجه الطبراني في الكبير وفي الدعاء عن أبي أمامة الباهلي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٧): رواه الطبراني وفيه فضالة بن عبيد، مجمع علىٰ ضعفه.

بعبده من الوالدة بولدها[١]، وَأشدُّ فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، إذا يئس من الحياة ثم وجدها[٢].

وهو الملِك لا شريك له، والفرد فلا ندَّ له، كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه؛ لن يُطاع إلا بإذنه، ولن يُعصىٰ إلا بعلمه، يُطاع فيَشْكرُ، وبتوفيقه ونعمته أُطِيعَ، ويُعصَىٰ فيغفر ويعفو، وحقُّه أُضِيعَ.

فهو أقرب شهيد وأجلُّ حفيظ، وأوفىٰ وفيٍّ بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال؛ فالقلوب له مفضية، والسرُّ عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكلُّ أحدٍ إليه ملهوف، عنَتِ الوجوه لنور وجهه، وعَجَزت القلوب عن إدراك كنهه، ودلَّت الفِطَر والأدلَّة كلُّها علىٰ امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات **«لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يحفظ القسط ويرفعه، يُرفَع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعملُ النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»**[٣].

مـا اعتاض بـاذلُ حبِّه لسـواه مِن عوضٍ ولو ملَكَ الوجودَ بأسرِهِ

---

(١) كما جاء في حديث عمر رضي الله عنه أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) يشير إلىٰ حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه البخاري (٦٣٥٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

فصل

ص ٥٤٠ كلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل

وهاهنا أمر عظيم يجب علىٰ اللبيب الاعتناء به، وهو أنَّ كمال اللذةِ والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابعٌ لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنَّه أولىٰ بإيثار الحبِّ من كلِّ ما سواه.

والأمر الثاني: كمالُ محبته، واستفراغُ الوسع في حبِّه، وإيثارُ قربهِ والوصولِ إليه علىٰ كلِّ شيء.

وكلُّ عاقلٍ يعلم أنَّ اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته؛ فكلَّما كانت المحبة أقوىٰ كانت لذة المحبِّ أكمل، فلذَّةُ من اشتد ظمؤُه بإدراك الماء الزُّلال، ومن اشتدَّ جوعه بأكل الطعام الشهيِّ، ونظائرِ ذلك، علىٰ حسب شوقه، وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عُرف هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كلِّ حيٍّ، **وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها، فهي تُذَمُّ إذا أعقبَتْ ألمًا أعظمَ منها،** أو منعَتْ لذةً خيرًا وأجلَّ منها؛ فكيف إذا أعقبت أعظمَ الحسرات وفوَّتت أعظم اللذَّات والمسرَّات!

وتُحمَد إذا أعانت علىٰ لذة عظيمة دائمة مستقرَّة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجهٍ ما، وهي لذة الآخرة ونعيمُها وطيبُ العيش فيها.

قال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٦- ١٧]، وقال السحرة لفرعون لمَّا آمنوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢- ٧٣].

والله سبحانه خلق الخلق ليُنيلَهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد.

وأما الدنيا فمنقطعة، ولذَّاتها لا تصفو أبدًا ولا تدوم، بخلاف الآخرة؛ فإنَّ لذَّاتِها دائمة، ونعيمَها خالصٌ من كل كدرٍ وألمٍ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، مع الخلود أبدًا، ولا تعلم نفس ما أخفىٰ الله لعباده فيها من قُرَّة أعين، بل فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

وهذا المعنىٰ الذي قصده الناصح لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨- ٣٩]؛ فأخبرهم أنَّ الدنيا متاع يُستَمتَعُ بها إلىٰ غيرها، وأنَّ الآخرة هي المستقَرُّ.

وإذا عُرِف أنَّ لذَّاتِ الدنيا ونعيمَها متاعٌ ووسيلة إلى لذَّات الآخرة -ولذلك خُلقت الدنيا ولذَّاتُها، فكلُّ لذةٍ أعانت علىٰ لذة الآخرة وأوصلتْ إليها لم يُذَمَّ تناوُلُها، بل يُحمَد بحسب إيصالها إلىٰ لذَّة الآخرة- إذا عُرِف هذا؛ **فأعظمُ نعيم الآخرة ولذَّاتها النظرُ إلى وجه الربِّ ﷻ، وسماعُ كلامه منه، والقربُ منه.**

كما ثبت في «الصحيح»[(١)] في حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**».

وفي حديث آخر: «**إنَّه إذا تجلَّىٰ لهم ورأوه نسُوا ما هم فيه من النعيم**»[(٢)].

وفي «النسائي» و«مسند الإمام أحمد»[(٣)] من حديث عمَّار بن ياسر عن النبي ﷺ في دعائه: «**وأسألك لذَّةَ النظر إلىٰ وجهك، والشوقَ إلىٰ لقائك**».

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وضعفه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

(٣) سبق تخريجه.

وفي كتاب «السنَّة» لعبد الله ابن الإمام أحمد[1] مرفوعًا: «**كأنَّ الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن، فكأنَّهم لم يسمعوه قبل ذلك**».

وإذا عُرِف هذا؛ فأعظمُ الأسباب التي تُحصِّل هذه اللذَّةَ هو أعظمُ لذَّات الدنيا على الإطلاق، وهو لذَّةُ معرفته سبحانه ولذَّةُ محبته؛ فإن ذلك هو جنَّة الدنيا، ونعيمها العالي.

ونسبةُ لذَّاتها الفانيةِ إليه كتَفْلةٍ في بحرٍ؛ فإنَّ الروح والقلب والبدن إنَّما خلق لذلك، فأطيبُ ما في الدنيا معرفتُه ومحبَّتُه، وألذُّ ما في الجنَّة رؤيتُه ومشاهدتُه؛ فمحبَّتُه ومعرفتُه قرَّة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذَّاتُ الدنيا القاطعةُ عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقىٰ صاحبها في المعيشة الضَّنْك؛ فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعض المحبِّين تمرُّ به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنَّة في مثل هذا، إنَّهم لفي عيش طيِّب[2]!

وكان غيره يقول: لو علم الملوكُ ما نحن فيه لَجالَدونا عليه بالسيوف[3].

والمقصود أنَّ أعظم لذَّات الدنيا هو السبب الموصل إلىٰ أعظم لذَّةٍ في الآخرة.

ولذَّات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمُها وأكملُها: ما أوصل إلىٰ لذة الآخرة، ويُثاب الإنسان علىٰ هذه اللذة أتمَّ ثواب، ولهذا كان المؤمن يثاب علىٰ ما يقصد به وجهَ الله، من أكله وشربه ولبسه

---

(١) لم أجده في المطبوع، والحديث أخرجه الرافعي في التدوين (٢/ ٤٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه إسماعيل بن رافع المدني، وهو ضعيف.

(٢) قاله أبو سليمان المغربي، وقد سبق.

(٣) قاله إبراهيم بن أدهم، وقد سبق.

ونكاحه وشفاء غيظه بقهر عدوِّ الله وعدوِّه، فكيف بلذَّةِ إيمانه ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلىٰ لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟!

النوع الثاني: لذةٌ تمنع لذة الآخرة، وتُعقِب آلامًا أعظمَ منها، كلذَّة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودةَ بينهم في الحياة الدنيا يحبُّونهم كحبِّ الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقُوا ربهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨- ١٢٩].

ولذَّةِ أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلوِّ بغير الحق.

وهذه اللذَّات في الحقيقة إنَّما هي استدراجٌ من الله لهم؛ ليذيقهم بها أعظمَ الآلام، ويَحْرِمَهم بها أكملَ اللذَّات، بمنزلة من قدَّم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلى هلاكه.

قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢- ١٨٣] قال بعض السلف في تفسيرها: كلَّما أحدثوا ذنبًا أحدَثْنا لهم نعمةً[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤- ٤٥]، وقال تعالى في أصحاب هذه اللذّات: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦].

---

(١) ذكره عبد الله بن داود الخُرَيبي، من أئمة أتباع التابعين، عن بعض شيوخه. أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٦).

وقال في حقِّهم: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وهذه اللذَّات تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام، كما قيل:

مـآربُ كانـت في الحيـاة لأهلها عِذابًا فصارت في المعاد عَذابا

النوع الثالث: لذة لا تعقِبُ لذةً في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعَتْ كمالَها، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتُّع النفس بها قدر، ولابدَّ أن تَشْغَلَ عمَّا هو خير وأنفعُ منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «**كلُّ لهوٍ يلهو به الرجلُ فهو باطل، إلا رميَه بقوسه، وتأديبَه فرسه، وملاعبتَه امرأته، فإنهنَّ من الحقّ**»(١)، فما أعان على اللذة المطلوبةِ لِذَاتِها فهو حقّ، وما لم يُعِن عليها فهو باطل.

فصل

ص ٥٤٨ من أنواع المحبة المحمودة: محبة الرسول والقرآن

فهذا الحبُّ لا يُنكَر ولا يُذَمُّ، بل هو أحمدُ أنواعِ الحبِّ، وكذلك حبُّ رسول الله ﷺ، وإنما نعني المحبةَ الخاصَّةَ، وهي التي تَشغَلُ قلب المحبِّ وفكرَه وذكرَه لمحبوبه، وإلا فكلُّ مسلمٍ في قلبه محبةٌ لله ورسوله لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتًا لا يُحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، والنسائي (٣٥٨٠)، والترمذي (١٦٣٧)، وابن ماجه (٢٨١١)، وصححه الحاكم في المستدرك (٢٤٦٧).

فهذه المحبة التي تُلطِّف الروح، وتخفِّف أثقال التكاليف، وتسخِّي البخيل، وتشجِّع الجبان، وتصفِّي الذهن، وتروِّض النفس، وتطيِّب الحياة علىٰ الحقيقة، لا محبة الصور المحرَّمة، وإذا بُليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرةُ صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم في مضمَر القلبِ والحشا ... سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَى السرائرُ[1]

وهذه المحبة التي تنوِّر الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب.

وكذلك محبة كلام الله؛ فإنَّه من علامة محبَّة الله.

وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله؛ فانظر إلى محبة القرآن من قلبك، والتذاذِك بسماعه أعظمَ من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المُطرِب بسماعهم؛ فإنه من المعلوم أنَّ من أحبَّ محبوبًا كان كلامُه وحديثُه أحبَّ شيءٍ إليه.

كما قيل:

إنْ كنتَ تزعُم حُبِّي ... فلِمْ هجرتَ كتابي

أمَا تأمّلتَ ما فيـ ... ـهِ مِن لذيذِ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرتْ قلوبُنا لما شبعَتْ من كلام الله[2].

وكيف يشبع المحِبُّ من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه!

---

(١) البيت للأحوص الأنصاري، انظر: شعره المجموع (١٤٥).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ الزهد (٦٧٨)، وفي زوائده علىٰ فضائل الصحابة (٧٧٥).

وقال النبي ﷺ يومًا لعبد الله بن مسعود: «**اقرأ عليَّ**» فقال: أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟ فقال: «**إنِّي أحبُّ أن أسمعه من غيري**» فاستفتح، وقرأ سورة النساء، حتَّىٰ إذا بلغ قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «**حسبك**» فرفع رأسه، فإذا عينا رسولِ الله ﷺ تَذرِفان من البكاء[١].

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسىٰ يقولون: يا أبا موسىٰ، ذكِّرنا ربَّنا. فيقرأ وهم يستمعون[٢].

فصل

ص ٥٢٢ لا لوم للمحب في محبة النسوان

وأما محبَّة النِّسْوان فلا لوم علىٰ المحِبِّ فيها، بل هي من كماله، وقد امتنَّ الله سبحانه بها علىٰ عباده فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]؛ فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن قلبه إليها، وجعل بينهما خالصَ الحبِّ، وهو المودة المقترنة بالرحمة.

وقد قال تعالىٰ عقيب ذكره ما أحلَّ لنا من النساء وما حرَّم منهن: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٥).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٣٥٣٦، ٣٥٣٩)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٧١٩٦).

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: قال: إذا نظر إلىٰ النساء لم يصبر(١).

وفي «الصحيح»(٢) من حديث جابر عن النبي ﷺ: أنَّه رأىٰ امرأةً، فأتىٰ زينب فقضىٰ حاجته منها، وقال: «**إنَّ المرأةَ تُقْبِل في صورة شيطان، وتُدْبِر في صورة شيطان، فإذا رأىٰ أحدكم امرأةً فأعجبَتْه فليأتِ أهلَه، فإنَّ ذلك يَرُدُّ ما في نفسه**».

ففي هذا الحديث عدة فوائد:

منها: الإرشاد إلىٰ التسلِّي عن المطلوب بجنسه، كما يقوم الطعام مقام الطعام، والثوب مقام الثوب.

ومنها: الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورِثِ لشهوتها بأنفع الأدوية، وهو قضاء وطره من أهله، وذلك ينقُض شهوته لها.

ولا ريب أنَّ النبي ﷺ كان قد حُبِّب إليه النساء.

كما في حديث أنس عنه ﷺ: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعِلت قرَّةُ عيني في الصلاة**»(٣).

وهذا سليمان كان يطوف في الليلة علىٰ تسعين امرأةً(٤).

---

(١) من طريق سفيان الثوري أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (١١٧)، وابن الجوزي في ذم الهوىٰ (١٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٣).

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وصححه الحاكم (٢/ ١٧٤)، (٢٦٧٦)، وضعفه العقيلي (٢/ ١٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٤٢).

وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه فقال: «**عائشة**»[(١)].

وقال عن خديجة: «**إني رُزِقت حبَّها**»[(٢)].

فمحبة النساء من كمال الإنسان.

قال ابن عباس: خير هذه الأمة أكثرها نساءً[(٣)].

وقد شفع النبيُّ ﷺ لعاشقٍ أن تواصله معشوقته بأن تتزَّوج به فأبت، وذلك في قصة مُغيثٍ وبريرةَ؛ فإنَّه رآه يمشي خلفَها بعد فراقها، ودموعه تجري علىٰ خدَّيه، فقال لها: «**لو راجَعْتِيه!**» فقالت: أتأمرني يا رسول الله؟ قال: «**لا، إنَّما أشفع**» فقالت: لا حاجة لي به. فقال لعمِّه: «**يا عبَّاس، ألا تعجَبُ من حبِّ مغيثٍ بريرةَ، ومِن بُغضها له!**»[(٤)]، ولم ينكر عليه حبَّها، وإنْ كانت قد بانَتْ منه؛ فإنَّ هذا ما لا يملكه.

وكان النبي ﷺ يسوِّي بين نسائه في القَسْم ويقول: «**اللهمَّ هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلُمْني فيما لا أملك**»[(٥)]، يعني: الحبّ.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، يعني: في الحبِّ والجماع.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٣٥) من حديث عائشة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٩). والمقصود بخير هذه الأمة النبيُّ ﷺ.

(٤) من حديث ابن عباس ﷺ أخرجه البخاري (٥٢٨٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والنسائي (٣٩٤٣)، والترمذي (١١٤٠)، وابن ماجه (١٩٧١)، وصححه ابن حبان (٤٢٠٥)، وأعلَّه البخاري وأبو زرعة والترمذي. انظر: علل ابن أبي حاتم (١٢٧٩)، والعلل الكبير للترمذي (٢٨٦).

فعشق النساء ثلاثة أقسام:

عشق هو قربة وطاعة: وهو عشق الرجل امرأته وجاريته، وهذا العشق نافع؛ فإنَّه أدعىٰ إلىٰ المقاصد التي شرع الله لها النكاح، وأكَفُّ للبصر والقلب عن التطلُّع إلىٰ غير أهله؛ ولهذا يُحْمَد هذا العاشق عند الله وعند الناس.

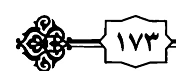
وعشق هو مقتٌ مِن الله وبعدٌ من رحمته، وهو أضرُّ شيءٍ علىٰ العبد في دينه ودنياه: وهو عشق المردان؛ فما ابتلي به إلا من سقط من عين الله، وطرده عن بابه، وأبعد قلبَه عنه، وهو من أعظم الحُجُب القاطعة عن الله.

كما قال بعض السلف: إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبَّة المردان.

وهذه المحبة هي التي جلبت علىٰ قوم لوط ما جلبت، فما أُتُوا إلا من هذا العشق؛ قال تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ودواء هذا الداء الدويِّ الاستعانة بمقلِّب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره، والتعوُّض بحبِّه وقربه، والتفكُّر في الألم الذي يُعقِبه هذا العشقُ، واللذَّةِ التي تفوته به؛ فيترتَّب عليه فواتُ أعظم محبوب، وحصولُ أعظم مكروه؛ فإن أقدمَتْ نفسُه علىٰ هذا وآثرَتْه، فليُكبِّر عليها تكبيرَه علىٰ الجنازة، ولْيعلَمْ أنَّ البلاء قد أحاط به!

والقسم الثالث من العشق: عشق مباح لا يُملَك، كعشق من وُصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأةً من غير قصد، فأورثه ذلك عشقًا لها، ولم يُحدِث له ذلك العشقُ معصيةً؛ فهذا لا يُملَك ولا يعاقَب عليه، والأنفع له مُدافعتُه، والاشتغال بما هو أنفع له، والواجب علىٰ هذا أن يكتم ويعفَّ ويصبر علىٰ بلواه؛ فيثيبه الله علىٰ ذلك، ويعوِّضه علىٰ صبره لله، وعفَّته، وتركِه طاعة هواه، وإيثارِ مرضاة الله وما عنده.



فصل

ص ٥٦٨
حديث «من عشِقَ فعفَّ»

وأمَّا حديث «من عشِقَ فعفَّ» فهذا يرويه سُوَيد بن سعيد؛ فقد أنكره حفَّاظ الإسلام عليه[١].

قال ابنُ عديٍّ في كامله: هذا الحديث أحد ما أُنكِر علىٰ سويد.

وكذا ذكره البيهقي، وابن طاهر في «الذخيرة» و«التذكرة»[٢]، وأبو الفرج ابن الجوزي وعدَّه في الموضوعات[٣].

وأنكره أبو عبد الله الحاكم -علىٰ تساهله- وقال: أنا أتعجَّب منه.

قلت: والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عبَّاس ﵄ موقوفًا عليه، فغلِط سُوَيد في رفعه.

قال محمَّد بن خلف بن المرزبان[٤]: حدَّثنا أبو بكر الأزرق، عن سويد به، فعاتبته علىٰ ذلك، فأسقط ذكرَ النبي ﷺ فكان بعد ذلك يسأل عنه فلا يرفعه.

ولا يشبه هذا كلام النبوة.

وكلامُ حُفَّاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يُرجَع في هذا الشأن، وما صحَّحه، بل ولا حسَّنه أحدٌ يُعوَّل في علم الحديث عليه، ويُرجَع في التصحيح إليه.

وحسبُ قتيلِ العشق أن يصحَّ له هذا الأثر عن ابن عباس.

---

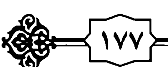
(١) سبق تخريجه. (٢) تذكرة الموضوعات (٩١).

(٣) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٧١). (٤) ذم الهوىٰ (٣٢٩).

علىٰ أنَّه لا يدخل تحته حتَّىٰ يصبرَ لله، ويعفَّ لله، ويكتم لله، وهذا لا يكون إلا مع قدرته علىٰ معشوقه، وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه، وهذا مِن أحقِّ مَن دخل تحت قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠- ٤١]، وتحت قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فنسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يجعلنا ممن آثر حبَّه علىٰ هواه، وابتغىٰ بذلك قربه ورضاه.

فهرس الموضوعات





فهرس الفوائد

الفائــــدة	الصفحة	الأصل
الرَّجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب	٤٢	٨٧
وصف الله أهل السعادة بالإحسان مع الخوف	٤٣	٩١
ممّا ينبغي أن يعلم أنّ الذنوب تضرّ ولا بدّ	٤٨	٩٨
قال ابن عباس: يا صاحب الذنب لا تأمَنْ سوءَ عاقبته	٥٣	١٢٥-١٢٦
قال بلال بن سعد: لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة ولكن انظر مَن عصيت	٥٤	١٢٦-١٢٧
قال محمَّد بن سيرين لمّا ركبه الدَّينُ واغتمّ لذلك: إنّي لأعرفُ هذا الغمَّ بذنب أصبتُه منذ أربعين سنة!	٥٥	١٣٠
من وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامه	٦١	١٦٦
أجمع السائرون إلىٰ الله أنّ القلوب لا تعطَىٰ مُناها حتّىٰ تصل إلىٰ مولاها	٦٤	١٣٢
ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوعٌ من العتاب لطيفٌ عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداتُه لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة!	.....	١٩٩
وكنانته من أرضه -وهي الشام- أرض البركة، وصفها بالبركة في ستّ آيات من كتابه	.....	٢٠٢
قد ينزل العبد نزولًا بعيدًا أبعدَ مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض، فلا يفي صعودُه ألفَ درجة بهذا النزول الواحد	٦٧	٢٠٦

الفائـــدة	الصفحة	الأصل
أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنّة بذنب واحد ارتكباه	٦٩	٢١٠-٢١١
لمّا كان المصابُ إذا شاركه غيرُه في مصيبته حصل بالتأسّي نوعُ تخفيفٍ وتسلية، أخبر سبحانه أنّ هذا غير موجود وغير حاصل في حقّ المشتركين في العذاب		٢٢٤
كثيرًا ما يقع الغلط للعبد ويذنب الذنب؛ فلا يرىٰ أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله علىٰ التدريج شيئًا فشيئًا	٨٢	٢٧٢
القلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغِلّ، والحقد، والحسد	٨٤	٢٨٢-٢٨٣
حاجة العبد بل ضرورته إلىٰ أن يسأل الله أن يهديه الصراطَ المستقيم	٨٥	٢٨٣-٢٨٤
أكثر الناس لا يُخلِص لله في معاملته وعبوديته	٩٣	٣٠٢
الرياء كله شرك	٩٣	٣٠٢
أربعة من حفظها أحرز دينَه: اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات	١٠٢	٣٤٧-٣٤٨
النظر أصل عامّة الحوادث التي تصيب الإنسان	١٠٤	٣٥٠
الخطرات شأنها أصعب، فإنّها مبدأ الخير والشرّ، ومنها تتولّد الإرادات	١٠٦	٣٥٣
ما يستخرج من القلب معرفةَ الله، ومحبّتَه، وخوفَه، ورجاءَه	١٠٧	٣٥٧
قال الشافعي: صحبتُ الصوفية، فلم أستفد منهم سوىٰ حرفين	١٠٨	٣٥٨
من العجب أنّ الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه	١١٠	٣٦٦
اعلم أنّ سوء الخاتمة لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه	١١٨	٣٩١

الفائـــدة	الصفحة	الأصل
لذّة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلوّ بغير الحق في الحقيقة إنّما هي استدراج من الله لهم	١٦٦	٥٤٧
إذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر إلىٰ محبة القرآن من قلبك	١٦٨	٥٤٨-٥٤٩




عطاءات العلم